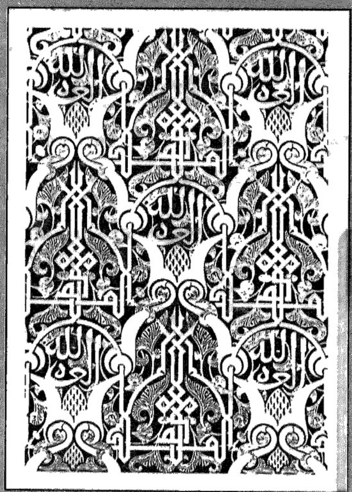
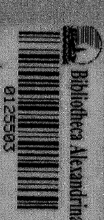
تاريخ العرب الحديث

الدكتور محمد عبد الله عودة
إبراهيم ياسين الخطيب







تاريخ العرب الحديث

الدكتور محمد عبد الله عودة
إبراهيم ياسين الخطيب

الأهلية للنشر والتوزيع

الاهداء

الى طلاب العلم الذين يطلبون العلم من المهد الى اللحد، الى طلاب الجامعات وكليات المجتمع، الى ابنائنا، الى كل عربي نهدي كتابنا.

تاريخ العرب الحديث

الدكتور محمد عبد الله عودة
ابراهيم ياسين الخطيب

رقم الايداع لدى دائرة المكتبات والوثائق الوطنية
(١٦٩ / ٣ / ١٩٨٩)

٩ر٠ع٩
محمـ محمد عبدالله عودة.
تاريخ العرب الحديث/ محمد عبد الله عودة،
ابراهيم ياسين الخطيب. ـ عمان: (د.ن)، ١٩٨٩.
(١٥٨) ص. الاهلية للنشر والتوزيع
ر. ا. ١٦٩/٣/١٩٨٩.
١ ـ العالم العربي ـ تاريخ ـ عصر حديث. ا ـ ابراهيم ياسين الخطيب، مؤلف مشارك. ب ـ العنوان.
(تمت الفهرسة بمعرفة دائرة المكتبات والوثائق الوطنية)



عمان ـ خلف مطاعم القدس ☎ ٦٣٨١٨٨/٦٧٤٤٨ ■ ٧٧٧٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يسرنا أن نضع بين يدي قارئنا الكريم كتاب تاريخ العرب الحديث، وقد حاولنا فيه أن نعرض تاريخ الوطن العربي بأسلوب يناسب طلاب كليات المجتمع والجامعات، وكذلك المهتمين بقراءة التاريخ.

لقد شعرنا خلو المكتبة العربية من كتاب شامل لتاريخ هذه الحقبة من الزمن، وحاجة الدارسين لمثل هذا الكتاب، لذلك حاولنا وضع تجاربنا في تدريس هذه المادة بين يدي القارىء عله يفيد منها.

يبحث الكتاب في تاريخ البلاد العربية تحت الحكم العثماني، من نهاية الدولة المملوكية حتى القرن العشرين، وقد عالجنا هذا الموضوع في عدد من الفصول تسهيلا للدارس.

قسمنا الكتاب إلى أربعة فصول رئيسة، خصصنا الفصل الأول لأحوال الوطن العربي السياسية والاقتصادية والاجتماعية قبيل الحكم العثماني، وقدمنا لمحة موجزة عن نشأة الدولة العثمانية لتعزيز الدراسة واثرائها.

وتحدثنا في الفصل الثاني عن أحوال الوطن العربي تحت الحكم العثماني منذ القرن السادس عشر حتى بداية القرن العشرين.

وأبرزنا في الفصل الثالث الاطماع الاوروبية في الوطن العربي، ومحاولاتها في السيطرة على البلاد العربية ومقاومة العرب لهذه الاطماع ومحاولات السيطرة.

وحاولنا في الفصل الرابع أن نحلل حركة الاصلاح واليقظة في الوطن القرن خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

وقد توخينا لدى معالجتنا هذه الموضوع تحقيق الأهداف التالية:

- تنمية الشخصية السوية للقارىء بتزويده بالحقائق والمعلومات والاتجاهات والمهارات التي تسهم في بناء شخصية الفرد وتحمل المسؤولية نحو الأمة والوطن والانسانية.

- تفهم حاضر الأمة العربية وتحديد معالم مستقبلها، وابراز الروابط المتينة بينها وبين الشعوب الاسلامية.
- اكتشاف التعليلات الخاطئة، والقدرة على التمييز بين الحقائق ووجهات النظر.
- القدرة على استخدام المراجع التاريخية والصحف وغرس روح البحث وتحليل النصوص التاريخية للوصول للحقيقة.

وتحقيقا للفائدة فقد ذيلنا معظم الفصول بمجموعة من المراجع التي نامل ان يرجع اليها القارىء للتوسع في فهم ما اجمل من احداث وافكار في فصول الكتاب، ولا سيما ان هدف هذه الدراسة هو رسم الخطوط العامة لتاريخ العرب الحديث، وترك التفاصيل الدقيقة للقارىء الذي يرغب في ذلك.

وزودنا الكتاب بمجموعة من الخرائط التوضيحية التي تفيد القارىء في معرفة المواقع التاريخية، كما حرصنا على تثبيت المصادر والمراجع التي تساعد القارىء في المزيد من البحث.

وأملنا كبير ان يحقق هذا الكتاب الأهداف المنشودة، وان يكون عونا لطلاب الدراسات الاجتماعية في كليات المجتمع بشكل خاص ونرجو أن لا يبخل علينا الأخوة الكرام، بين حين وآخر بملاحظاتهم، وارائهم لتنير لنا الطريق، ولتتظافر جهودنا جميعاً في خدمة قارئنا في الوطن العربي.

واننا لندين بحق بظهور هذا الكتاب لكلية القدس التي جمعتنا معا، مما هيأ لنا العمل كفريق واحد لاصدار هذا الكتاب تيسيراً لدراسة الطلاب ومساعدتهم.

والله نسال أن يوفقنا

عمان، كلية القدس ١٩٨٩/٢/٢٠

الفصل الأول

مدخل

- أحوال الوطن العربي السياسية والاقتصادية والاجتماعية قبيل الحكم العثماني.
- لمحة موجزة عن نشأة الدولة العثمانية وتوسعها. منذ القرن الثالث عشر حتى القرن السادس عشر.

أحوال الوطن العربي

السياسية والاقتصادية والاجتماعية قبيل الحكم العثماني

أصاب الوطن العربي التدهور والركود اثر سقوط بغداد عاصمة الخلافة العباسية على أيدي المغول سنة ١٢٥٨، وأصاب الانهيار في انظمته السياسية والاجتماعية والاقتصادية منذ الدمار الذي حاق به على يد الهجمة المغولية في المشرق[١]، والصليبية (الاسبان والبرتغال) في المغرب والأندلس.

أحوال الوطن العربي السياسية

ساد الوطن العربي التفكك السياسي. وانقسم الى عدد من الدول الضعيفة، واصبحت اراضيه نهباً لاطماع المغول في الشرق والاسبان والبرتغال في الغرب، وبهذا فقد وحدته السياسية، واضطربت احواله، وبرزت وحدات سياسية منها.

العراق:

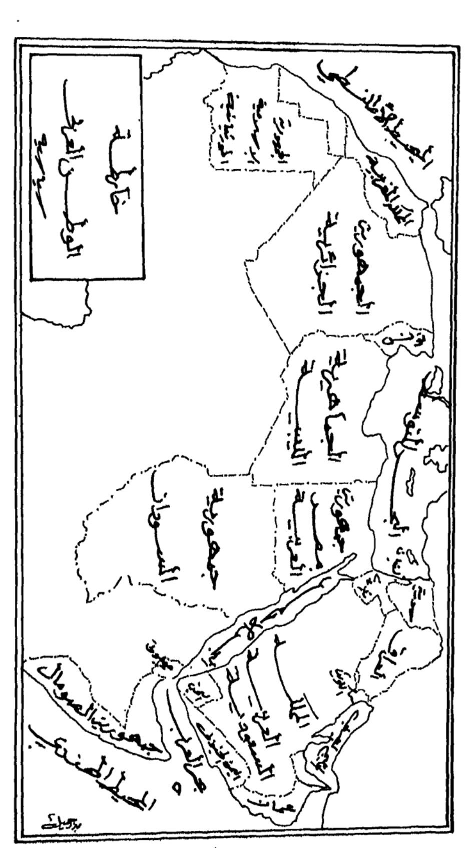
احتل هولاكو المغولي بغداد سنة ١٢٥٨، وسقطت الدولة العباسية، وحكمت اسرة هولاكو العراق حوالي الثمانين عاما، ثم حكمت الأسرة المغولية (الجلائريون) حوالي القرن، وفي عام ١٤٠١ تعرض العراق لعاصفة مغولية جديدة قادها تيمورلنك، ثم تنازع العراق المغول والتركمان، وتمكنت اسرة تركمانية (القره قو ينلو ومعناها ذو الخراف السود) من السيطرة على البلاد لفترة ستين عاما، حيث انتزعت الحكم أسرة تركمانية أخرى الاق قوينلو (ذو الخراف البيض) حوالي القرن[٢]. وكان أشهر حكامها اوزون حسن الذي ملك ايران والعراق أيضا، ولكن دولته ضعفت بوفاته، وقيام الدولة الصفوية[٣] في القرن الخامس عشر.

---

(١) محمد عبد المنعم السيد الراقد وزميله، الغزو العثماني لمصر، ص١٣٠.

(٢) احمد الشلبي، موسوعة التاريخ الاسلامي، ٥٨١/٧.

(٣) عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي، ٦٧.


خارطة
الوطن العربي
المحيط الأطلسي
المملكة المغربية
الجمهورية الجزائرية
الجماهيرية الليبية
جمهورية مصر العربية
جمهورية السودان
البحر المتوسط
العراق
الكويت
المملكة العربية السعودية
اليمن
عمان
بحر العرب
جمهورية الصومال
المحيط الهندي
الجمهورية الموريتانية

تطلع الصفويون الشيعة في ايران الى السيطرة على العراق لاحتوائها العتبات الشيعية المقدسة، كربلاء والنجف، ولوفرة ثرواتها الزراعية، وموقعها التجاري الهام على الخليج العربي،وفي عام ١٥٠٨ تقدم الشاه اسماعيل الصفوي واحتل جنوب العراق بما فيها بغداد.

مصر والشام والجزيرة

أسس الايوبيون دولة في مصر والشام والجزيرة العربية، ولكنها انتهت بمقتل الملك توران شاه واستيلاء مماليك والده الملك الصالح نجم الدين على السلطة سنة ١٢٥٠[١]، وكان للمماليك فضل في صد هجمات المغول والصليبيين، فقد هزموا المماليك في معركة عين جالوت ١٢٦٠، وطهروا بلاد الشام من الصليبيين نهائيا عام ١٢٩١.

أعاد المماليك الخلافة العباسية، ورسخوا المذهب السني في مصر والشام والجزيرة العربية، واكثروا من بناء المساجد والمدارس، ونشروا الاسلام في النوبة، وقد ركزوا السلطة بايديهم، ولم يحاولوا اشراك اهالي البلاد معهم، وكان المماليك يشترون العبيد من اوروبا وجنوب روسيا، ويدربونهم على الأعمال الحربية واستخدام الاسلحة، وكانوا يسيطرون على المراكز العسكرية والادارية في البلاد[٢]. وكان المملوك يصل الى الحكم عن طريق الاقدمية، وينتخبه امراء المماليك اذا كان يملك عدد كبيراً المماليك الجنود، وقد يصل الى السلطنة عن طريق المؤامرات.

تطلع البرتغاليون الى السيطرة على الخليج العربي والبحر الأحمر، والقضاء على المسلمين، فتمكنوا من احتلال جزيرة سوقطرة ببحر العرب، واحتلال مسقط بعد قصفها بالمدفعية، واحراقها، واسر أهلها والتمثيل بهم، كما احتل البرتغاليون صحار وهرمز، واتجهوا الى خورفكان، ووصلوا الى الكويت ثم البصرة، واقاموا فيها مراكز لهم، كما هاجموا شواطىء البحر الأحمر، ووصلوا الى مدينة جدة، وهزموا المماليك سنة ١٥٠٩ في معركة ديو.

المغرب العربي

عندما سقطت دولة الموحدين سنة ١٢٦٩، انقسمت اراضي المغرب والأندلس الى عدد من الامارات المتصارعة، واستمر الامراء في تنازعهم مما مكن الاسبان من احتلال

---

(١) علي حسون، تاريخ الدولة العثمانية، ٥١.
(٢) جلال يحيى، العالم العربي الحديث، المدخل، ص٢٢.

الاندلس سنة ١٤٩٢، وازالة الحكم العربي نهائيا بسقوط غـرناطة، واضـطر العرب الاندلسيون الى الاختيار بين القتل او التعميد، لذلك فر عدد كبير منهم الى موانىء شمال افريقيا، فتعقبهم الاسبان(١).

لقـد كان المغـرب العربي ينقسم الى ثـلاث دويلات متنـازعة بعـد سقوط دولة الموحدين، فظهرت الدولة الحفصية في طرابلس، وتونس، وحكمت من ١٢٢٨ ـ ١٥٥٤ حيث سيطر الاسبان على طرابلس الى ان خلصها منهم العثمانيون.

اما الجزائر فكانت موزعة بين بني زيان في تلمسان وبني حفص،ثم سيطر عليها بنو زيان الى ان احتل الاسبان المرسى الكبير سنة ١٥٠٥، ووهران سنة ١٥٠٩، وبجـاية سنـة ١٥١٠.

وفي مراكش حكم بنو مرين حتى عام ١٤٦٥، ثم خلفهم بنو وطاس عام ١٥١٠، ثم الاشراف السعديون عام ١٦٥٨، ثم الاشراف العلويون الذين لا يزالون يحكمونها حتى الآن.

لقد بلغ التفكك السياسي في المغرب العربي اقصاه في مطلع القرن السادس عشر، وعجزت دويلات المنطقة عن توحيد جهودها لدفع خطر اسبانيا والبرتغال، مما سهل على هاتين الدولتين مهاجمة البلاد باستمرار واحتلال المغرب.

وطرابلس سنة ١٥١٠، ثم تنازلوا عنها لفرسان القديس يوحنا سنة ١٥٣٥ (وهم من بقايا الصليبيين الذين طردهم المماليك من فلسطين)، علاوة على موانىء مراكش التي استسلم معظمها بين سنة ١٥٠٩ ـ ١٥١٥.

وهكذا كان الوطن العربي ضعيفا، وكان التفكك السياسي هو السمة السائدة فيه، مما مهد الطريق امام العثمانيين لاحتلاله، وانقاذه من الاخطار الاوروبية التي كانت تهدد وجوده.

الأحوال الاقتصادية:

انعكست الاوضاع السياسية المضطربة في الوطن العربي على الاقتصاد آنذاك، فقد تدهورت الزراعة، وقل الانتاج، وساءت احوال الفلاحين لانعـدام الامن وانتشار الامراض بين الفلاحين، واعتماد الزراعة على الأمطار المتذبذبة، كما ان الحكام اهتموا بالملكية العقارية الزراعية حتى يضمنوا محصولاً اساسيـاً يمكنهم الاعتماد عليـه في

---

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ص ٣٠.

تموين الجنود، مما أصبح النظام الاقتصادي نظاماً اقطاعياً في شكله وفي طبيعة تكوينه، وان اختلف عن النظام الاقطاعي الذي ساد اوروبا.

وكانت الصناعة يدوية خفيفة تعتمد على الأسواق المحلية، وقد اشتهرت المنسوجات الحريرية والكتانية والقطنية والصوفية، وصناعة استخراج الزيوت النباتية، وصناعة الاواني النحاسية والحلي بالاضافة الى صناعة الورق والسكر وطحن القمح وغيرها، ومع ان الصناعة كانت مزدهرة في مصر الا أنها تأثرت كثيراً بسبب الحروب المستمرة، واكتشاف رأس الرجاء الصالح. وكان لكل حرفة شيخها، يشرف على اعضائها، ويدافع عن مصالحهم، ويساعد على إتقان الصناعة والمحافظة على جودتها، وكانت الصنعة تنتقل من الأب الى الابن، ولهذا بقيت الصناعة محصورة ببعض الأسر، كما أصاب بعض الصناعات الضعف وقلة الانتاج.

أما التجارة فكانت مزدهرة أيام المماليك واستمرت حتى نهاية القرن الخامس عشر، وقد قام المماليك بالوساطة التجارية بين الشرق وأوروبا، وبنوا الفنادق والمؤسسات التجارية لتوفير الراحة الكافية للتجار.

احتاجت اوروبا الى موارد الشرق الأقصى، الى التوابل والحرير واستخدمت ثلاث طرق لنقلها:

- الطريق البري من الصين الى بيزنطة عبر العراق والشام، وكانت تسمى طريق الحرير، ويشرف العرب على نقل هذه التجارة.
- الطريق البحري الذي يمر عبر المحيط الهندي فالخليج العربي ثم البصرة وبغداد ودمشق وحلب الى البحر المتوسط.
- الطريق البحري من المحيط الهندي فالبحر الاحمر فالبحر المتوسط او السويس فالقاهرة فالاسكندرية.

ربح العرب من هذه التجارة ارباحاً طائلة، واصبح الدينار العربي اساساً للتعامل التجاري العالمي في أنحاء العالم، وقد كانت التجارة تتركز في الموانىء المصرية والشامية. وعقدت الاتفاقات التجارية بين السلطات العربية والاوروبيين، وفرضت ضرائب مكنت العرب من الانفاق على الادارة والعلماء والجيش.

شعر الأوروبيون بأهمية هذه التجارة، فقام الاسبان والبرتغال بمحاولة السيطرة على العالم الاسلامي بالالتفاف حوله للوصول إلى الحبشة،ومحاصرة المسلمين، ثم

الوصول الى موطن التوابل، ونجح البرتغاليون بالوصول الى الهند، فكانت كارثة على العرب، فقد قاموا بإحراق مدن وموانىء العرب على طول ساحل افريقيا الشرقي، كما احرقوا السفن العربية ومنعوا تجارتهم بين البحر الأحمر والهند.

حاول المماليك التصدي الى البرتغاليين، ولكنهم هزموا سنة ١٥٠٩ في معركة ديو، وبذلك سيطر البرتغاليون على التجارة، وحرم العرب من مورد أساسي[١]، فعم الفقر، وتخلف العلم، واثقلت الضرائب كاهل الشعب، وجاء الحكم العثماني ليزيد الحياة بؤساً وتخلفاً.

ويذكر ابن إياس[٢] ان أجهزة الدولة المملوكية عجزت عن إقرار النظام، وكبح جماح المماليك الذين كانوا يعتدون على أملاك الشعب، فقد هاجموا الطواحين للاستيلاء على ما بها من خيول، فاضطر أصحابها الى اغلاقها، وامتنع الخبز في الأسواق، وكذلك الدقيق، ووقع القحط بين الناس.

الأحوال الاجتماعية:

في أواخر العصر العباسي اضطربت الحالة الاجتماعية في العراق، اذ أصبحت قصور الخلفاء تغص بالأتراك والأكراد فأهملوا شؤون الدولة، وغرقوا باللذات وحضور مجالس اللهو والرقص والغناء، واشتد الصراع الطائفي بين السنة والشيعة، وقتل الصفويون جماعة من السنيين، وهدموا قبور الأئمة[٣]، وفسدت الاخلاق، وانحطت الحياة الثقافية بعد ان أحرق المغول دور الكتب والمدارس، وأهمل الحكام شؤون الدولة، وأغرقوا انفسهم بالترف، وانفقوا الأموال على الجواري، واهملت السدود، وغرقت بغداد، وقل الغذاء وانتشرت الأمراض.

وفي مصر والشام والجزيرة العربية عاش المماليك في عزلة عن الشعب، وكونوا طبقة استأثرت بالمناصب الادارية والعسكرية[٤] أي انهم كونوا مجتمعاً اقطاعياً، وابتعدوا عن الاختلاط بأهالي البلاد الذين حرموا من المشاركة في ادارة بلادهم، وساءت أحوال الشعب الصحية والاجتماعية والاقتصادية، الا أن العلماء تمتعوا بمكانة عالية، وبقي القضاء في يد الشعب لانه يستلزم تضلعاً في علوم الدين

---

(١) محمد عبد المنعم السيد الراقد. الغزو العثماني لمصر ١٤٥.
(٢) محمد بن احمد بن إياس: بدائع الزهور، ٥/٢٧.
(٣) أحمد الشلبي. موسوعة التاريخ الاسلامي ٧/٥٨٣.
(٤) محمد عبد المنعم الراقد. الغزو الثقافي لمصر ٥٨.

واللغة، وانتشرت ظاهرة التصوف وحياة الزهد[1]، وانتعش المذهب السني، وفتحت المدارس والمكتبات، وكثرت المساجد وتحسنت مكانة المرأة في مصر والشام. اما في الجزيرة العربية فقد تدهورت الحياة الفكرية، وعم الجهل، واعتدى البدو على قوافل الحجاج، وانتشر الفساد الاجتماعي، وانتشر الجهل في أمور الدين مما مهد الى ظهور المصلح محمد بن عبد الوهاب.

أما في المغرب العربي فقد قويت الروابط الاجتماعية بين **السكان**، وازداد الحماس الديني، وارتفعت شعارات الجهاد لمواجهة خطر البرتغاليين والاسبان الداهم، كما انتعشت الحياة العلمية لكثرة العلماء والأدباء الذين وفدوا الى المغرب بعد سقوط غرناطة في الاندلس.

نشأة الدولة العثمانية وتوسعها:

نشأة الدولة:

أسست قبيلة قابي التركية الدولة العثمانية فقد هاجرت من اواسط آسيا الى الاناضول في مطلع القرن الثالث عشر، بضغط المغول وكان يقودها شخص يسمى سليمان، الذي كان حاكم ماهان في بلاد المرو[2].

غرق سليمان في نهر في الشام، فقاد ابنه ارطغرل القبيلة الى آسية الصغرى، وهناك ساعد الأتراك سلطان قونية علاء الدين السلجوقي في حربه ضد البيزنطيين، فأقطعهم منطقة اسكى شهر سنة ١٢٨٥ مكافأة لهم.

خلف عثمان أباه أرطغرل سنة ١٢٨٨، فأسس دعائم الدولة، وأخذ يوسع حدودها على حساب البيزنطيين، فاحتل مدينة قرة حصار، واتخذها عاصمة له. ونسب العثمانيون دولتهم اليه.

تولى اورخان الملك بعد ابيه سنة ١٣٢٦، فتابع سياسة توسع الدولة، واستولى على بروسة، وانقرة، ونيقية ونيقوميديا، وأسس الجيش الانكشاري وهو يتكون من خمس الاسرى المخصصين للدولة في بادىء الأمر[3]، ثم أصبح يتكون من ضريبة الدفشرمة التي تقدم للدولة، وكان الاولاد يربون تربية عسكرية في ثكنات خاصة، ولا يتزوجون، ولا

---

(١) السيد العريني، المماليك.
(٢) عبد الكريم رافق. بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني حتى حملة نابليون، ص ٢٥.
(٣) نفس المصدر السابق، ص ٣٦.

يرتبطون بروابط اسرية، بل يوقفون حياتهم الاسلامية على الجهاد، وخدمة الدولة والولاء لها.

توسع العثمانيين في البلقان:

نشطت غزوات العثمانيين في البلقان فاستولى مراد الأول على تراقيا وبلغاريا، كما هزم الصربيين في معركتي مرتزا وقوصوة واستولى على بلادهم، وخلفه ابنه بايزيد الأول الذي فتح صربيا وقسماً من البوسنة، وانتصر في موقعة نيقوبولس على الحلف الأوروبي الذي ضم هنغاريا.

حرص العثمانيون على ان يوازنوا كل توسع لهم في البلقان بتوسع في الاناضول، فاحتلوا أنقرة ذات الحضارة السلجوقية، كما احتل بايزيد الامارات التركية المطلة على بحر ايجه، وعندما حاول التوسع في شرق الاناضول تصدى له تيمورلنك المغولي وهزمه في معركة انقرة سنة ١٤٠٢ وأسره.

فتح القسطنطينية:

تصارع اولاد بايزيد الاول على السلطة لعشر سنوات (١٤٠٣ ـ ١٤١٣)، وقد تمكن الامير محمد من اعلان نفسه سلطانا سنة ١٤٠٧، واستطاع ان يبسط سيطرته على الاناضول، وان يعيد وحدة الدولة سنة ١٤١٣.

اتخذ محمد الاول سياسة تغاير سياسة والده، مكنته ان يربط نفسه بروابط الصداقة مع امراء الاناضول المسلمين، وفرض نفوذه عليهم بالتدريج، كما ابدى اهتماما بعامة الأتراك، فكسب عطفهم وعطف علماء المسلمين، وقضى على كل عناصر التذمر والفساد، فأعاد بناء الدولة من جديد، وتابع خلفاؤه التوسع في اوروبا من جديد.

تمكن السلطان محمد الفاتح (الثاني) من فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣، وجعلها عاصمة للدولة، واستولى على المناطق الشرقية من الاناضول، وبنى مسجدا فوق ضريح الصحابي ابي ايوب الانصاري الذي استشهد في حصار القسطنطينية في عهد الخليفة الأموي معاوية ابن أبي سفيان.

أعاد العثمانيون تنظيم ما احتلوه في البلقان (رومانيا وبلغاريا، واليونان، ويوغسلافيا، والمجر والبانيا)، وعمدوا الى تطبيق القواعد العثمانية عليها، وذلك باحصاء السكان، ومسح الأراضي وتوزيعها على شكل اقطاعات، وكان يسجل ذلك في سجلات

تسمى دفاتر، كما اطلقوا على مناطق البلقان اسم روميليه (Ruméli) اي بلاد الروم نسبة الى مذهب الروم الارثوذكس السائد هناك[1].

بلغت الدولة العثمانية مجد قوتها في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ ـ ١٥٣٣)، اذ تمكن العثمانيون من فتح جزيرة رودس، ودخلوا عاصمة المجر، وحاصروا فينا عاصمة النمسا سنة ١٥٢٩، فاضطر امبراطور النمسا الى مصالحتهم، واقتسام المجر معهم، ودفع الجزية لهم.

بقيت الدولة العثمانية قوية، مرهوبة الجانب اكثر من قرنين بعد فتح القسطنطينية، وتدافع عن جميع المسلمين التابعين لها ضد القوى الاستعمارية، ولكنها اخذت تضعف شيئا فشيئا، فلقبتها الدول الأوروبية «بالرجل المريض» وتطلعت هذه الدول الى اقتسام املاك هذه الدولة المتهاوية.

التوجه العثماني نحو الشرق:

توقفت الفتوحات العثمانية في اوروبا بمجيء السلطان سليم الأول واتجه العثمانيون بأنظارهم نحو الشرق، ويعلل بعض المؤرخين سبب ذلك، بأن الفتوحات العثمانية وصلت حد التشبع، ولكن البعض لم يقبل هذا التفسير لأنه **ما أن** تولي السلطان سليمان القانوني الحكم بعد ابيه سليم حتى اندفع الجيش العثماني في قلب اوروبا، فاستولى على بودابست، واكتسح سهول المجر سنة ١٥٢٦، وانتزع معظمها من امبراطورية النمسا، ووصل الى اسوار مدينة فينا سنة ١٥٢٩.

ويفسر البعض هذا التحول، بازدياد الخطر البرتغالي في الشرق،ومحاولتهم تطويق الشرق الاسلامي بالاستيلاء على جزيرة سوقطرة والساحل الشرقي لشبه جزيرة العرب، بل وتوجيه حملة بحرية لاحتلال جدة، مما أجبر العثمانيين الى محاولة حماية الشرق الاسلامي من هذا الخطر.

ويبرر مؤرخون هذا التوجه نحو الشرق **هو رغبة السلطان** العثماني سليم في ضم العالم الاسلامي لدولته، ليجعل من العالم الاسلامي دولة موحدة، وحتى يدعم مركز الدولة العثمانية كدولة اسلامية سنية في مواجهة الدول الاوروبية،والتوسع الشيعي الصفوي[1].

---

(١) محمود المنسي، مرجع سابق، ص ٢٠.

وبالفعل عندما فتح العثمانيون اليمن اتخذوا من هذه المنطقة قاعدة للقضاء على النفوذ البرتغالي الزاحف من المحيط الهندي، ونجح العثمانيون في جعل البحر الاحمر بحراً اسلامياً صرفاً لا تدخله غير السفن الاسلامية.

ويعتبر الخطر الصفوي من الأسباب الهامة التي جعلت الدولة العثمانية تتجه نحو الشرق للحد من التدخلات والفتن التي يثيرها الصفويون في أراضي آسية الصغرى.

ويؤكد المؤرخون ان الدولة العثمانية كانت وباستمرار تسعى للموازنة بين ما تحتله من أراض في اوروبا، وبين ما يجب ان تمتلكه في الاناضول، بحيث تتوازن الأراضي العثمانية في آسيا واوروبا، وكذلك يتوازن السكان المسلمون والمسيحيون من حيث العدد والنسبة التي تتكون منها العناصر الدينية.

النزاع بين العثمانيين والصفويين:

اسس الشيخ صفي الدين الدولة الصفوية في ايران في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، وعندما تولى اسماعيل الصفوي السلطة (١٥٠٢ ـ ١٥٢٤)، وحد ايران، وأقام دولة قوامها القوة العسكرية والمذهب الشيعي، وجعل مدينة تبريز عاصمتها، وفي سنة ١٥٠٨ انتزع مدينة بغداد من دولة آلاق قيونلو، وعامل اهل السنة والنصارى في بغداد بقسوة، وعطف على اليهود لانهم كانوا عيناً له، واعلن المذهب الشيعي مذهباً رسمياً للعراق، وخضعت له البصرة والموصل[١].

حاول الصفويون مد نشاطهم المذهبي والعسكري في آسيا الصغرى، فشعر المسؤولون في استنابول بعظم الخطر الجديد، وأدى ذلك إلى وقوع الصراع بين الدولتين للأسباب التالية:

- مشاكل الحدود وتداخلها بين الدولتين، لقد حاولت الدولتان العثمانية والصفوية القضاء على الامارات المغولية والتركمانية التي كانت في شمال العراق، مما أدى الى تداخل الحدود بين الدولتين وتأرجح ولاء الامارات الحدودية بين الدولتين.
- محاولة الدولة الصفوية نشر الدعوة الشيعية في الاناضول وتحريض الاقليات الشيعية هناك على الثورة ضد الحكم العثماني السني، وقيام اسماعيل الصفوي ببعض المذابح للسكان على الحدود.

---

(١) عبد الكريم غرايبة، مقدمة تاريخ العرب الحديث، ج ١، ص ١٦.

- تشجيع الدولة الصفوية بعض الامراء العثمانيين التمرد على الدولة العثمانية، واستقبالهما لهم.

إزاء هذه المخاطر، أجبر سليم الأول أباه بايزيد الثاني (المسالم) على التنازل عن العرش، وأهمل سليم جبهة البلقان، وركز اهتمامه بشؤون دار الاسلام[1]، وأجرى مذابح كثيرة بين شيعة شرقي الاناضول رداً على المذابح السنية في العراق بهدف القضاء على الطابور الخامس الشيعي في بلاده الذي كان عيناً للصفويين.

- العداء الشخصي الذي نشأ بين سليم الأول واسماعيل الصفوي، وتبادلهما الرسائل العنيفة.

احتكم السلطان سليم الأول الى السيف لحسم النزاع، وزحف بجيشه القوي الى ايران، وهزم الصفويين سنة ١٥١٤ في معركة جالديران، واحتل العاصمة تبريز، واستولى على أموال الشاه اسماعيل الذي فر الى الشرق.

وقد أدت هذه المعركة الى النتائج التالية:

- استيلاء العثمانيين على شمال العراق وديار بكر وأجزاء من اذربيجان.
- تأمين حدود العثمانيين الشرقية مع ايران.
- توازن قوى السنة والشيعة في العراق، واحتفاظ الدولة العثمانية بمذهبها السني في آسيا الصغرى.
- تأزم العلاقات بين الدولة العثمانية ودولة المماليك كما سنرى.
- شعور الدولة العثمانية بمسؤوليتها تجاه العالم الاسلامي السني، وتطلعها لاحتلال العراق لانقاذه من خطر الصفويين.

---

(١) نفس المرجع والصفحة.

الفصل الثاني

الوطن العربي تحت الحكم العثماني

منذ القرن السادس عشر حتى نهاية القرن التاسع عشر

- دخول الوطن العربي تحت الحكم العثماني.
- نظام الحكم العثماني في الوطن العربي.

حالة الوطن العربي السياسية والاقتصادية والاجتماعية تحت الحكم العثماني.

- عرض موجز لبعض الحركات الانفصالية عن الدولة العثمانية:
  - ظاهر العمر
  - فخر الدين المعني.
  - أحمد الجزار.
  - محمد علي

دخول الوطن العربي تحت الحكم العثماني

ازداد خطر الاسبان والبرتغاليين على الوطن العربي في مطلع القرن السادس عشر، وأصبحت مداخل الخليج العربي والبحر الأحمر تحت رحمة البرتغاليين، في حين كان المغرب العربي يئن من ضربات الاسبان البحرية، في الوقت الذي كان يتنازع المشرق العربي ثلاث قوى اسلامية،هي دولة المماليك التي تضم مصر والشام والجزيرة العربية، دولة الصفويين التي تسيطر على العراق، ودولة العثمانيين التي ترقب أحوال الوطن العربي، وتتحين الفرص لاحتلاله.

الصراع العثماني المملوكي:

يبدو ان الدولة العثمانية أحست بواجبها بضرورة الدفاع عن المناطق الاسلامية، بعد ان لمست عدم قدرة المماليك على مواجهة البرتغاليين اثر هزيمتها في معركة ديو البحرية سنة ١٥٠٨[(١)] وعدم قدرة الاسطول المملوكي الخروج من البحر الأحمر، مما أدى الى ضعف الدولة المملوكية وركود تجارتها مع الهند.

وعلّ الدولة العثمانية أرادت أن تجعل من البحر المتوسط بحيرة عثمانية، والسيطرة على الطرق البرية والبحرية التي كانت تربط الشرق بالغرب آنذاك، **لتكون** دعامة اقتصادية ضخمة بزيادة دخل الدولة من الضرائب والمكوس على **التجارة العابرة** في هذه الطرق التجارية.

وقد تنبهت الدولة العثمانية إلى محاولات التعاون بين البرتغاليين والحبشة للاستيلاء على الحجاز، ولذلك بدأت تتطلع الدولة العثمانية الى احتلال الوطن العربي وبخاصة بعد هزيمة الصفويين في جالديران سنة ١٥١٤.

كانت العلاقات العثمانية المملوكية جيدة في بداية الأمر، وكثيراً ما تبادل حكام البلدين الهدايا في المناسبات، كما ان المماليك كانوا **يحتفلون** عندما ينتصر العثمانيون على اوروبا، ولكن العلاقات بينهما كانت تسوء احياناً، فقد تنازع الطرفان حينما استولى المماليك على قبرص عام ١٤٨٥، وعندما التجأ الأمير العثماني جم منافس السلطان بايزيد على العرش الى دولة المماليك.

---

(١) جلال يحيى، تاريخ العرب الحديث المدخل ٣١.

تنافس المماليك والعثمانيون على زعامة العالم الاسلامي، ودعم المذهب السني لمواجهة خطر انتشار المذهب الشيعي، فتوترت العلاقات بينهما، وزاد خوف المماليك عندما غزا العثمانيون الأراضي الصفوية عام ١٥١٤، فتظاهر قانصوه الغوري بالحياد، وحاول التوسط بين العثمانيين والصفويين، الا ان العثمانيين لم يقبلوا ذلك، كما حاول التحالف سراً مع الصفويين، فعلم السلطان سليم الأول بذلك[١].

وفي يونيو ١٥١٥ قضى العثمانيون على امارة ذي القادر التركمانية الموالية للمماليك، والواقعة في أعالي الفرات بين الأراضي العثمانية والمملوكية، وذلك لأن أميرها علاء الدين حاول عرقلة الجيش العثماني الزاحف لغزو فارس، وبذلك أصبح العثمانيون يطوقون الممتلكات المملوكية في شمال الشام[٢]، فتأزمت العلاقات بين الدولتين، وشجع كل طرف منهما الخارجين على الدولة الثانية، فأصبحت الحرب بين الدولتين لا مفر منها.

فتح بلاد الشام مصر:

اتهمت كل من الدولة العثمانية والمملوكية الدولة الأخرى اتهامات مختلفة، فاتهم المماليك الدولة العثمانية بتعرضهم لتجار المماليك، الذين يأتون بالمماليك الشراكسة الى السلطة المملوكية( ) في حين اتهم العثمانيون دولة المماليك بالتعرض لقوافل المؤن العثمانية المتجهة للجيش العثماني، وبذلك اصبحت الظروف مهيأة للحرب، وبخاصة بعد ان رفض المماليك تسليم ابن أخ السلطان سليم الأول الى السلطات العثمانية.

أحس قانصوة الغوري ان العثمانيين يتطلعون للسيطرة على مملكته، فأخذ يستعد لمواجهة هذا الخطر، وسار بقواته الى حلب، وسرعان ما جوبه بالحشود العثمانية، والتقى الطرفان في مرج دابق سنة ١٥١٦، فحصدت المدفعية العثمانية فرسان المماليك خلال ساعات، وحاقت هزيمة فادحة بالجيش المملوكي[٣]، وفر قانصوة الغوري، ولكنه سقط ميتاً من على فرسه، وذكر ابن أجا[٤] ان من أسباب انتصار العثمانيين خيانة قادة المماليك خاير بك نائب حلب، وجانبردى الغزالي، وابراهيم السمرقندي واستخدام العثمانيين المدفعية.

تقدم السلطان سليم الى دمشق ومنها الى القاهرة، وفي الطريق الى الرملة اعمل

---

(١) محمود صالح المنسي، الغزو العثماني لمصر ١٢٧.
(٢) ابن أجا، العراك بين المماليك والأتراك، ٢٣١.
(٣) محمود صالح منسي، حركة اليقظة العربية، ٢٣.
(٤) عبد الكريم رافق، ٦٠.

السيف في أهلها لثورتهم على العثمانيين[1]، ثم تقدم الى القدس حيث تسلم مفاتيحها، وأرسل رسالة الى طومان باي سلطان المماليك في مصر يعرض الصلح، إلا أن طومان باي قتل الرسل، وأعلن النفير العام، ودعم قواته في غزة.

اتجه سليم الأول العثماني الى غزة فهزم المماليك، وأقام مذبحة لأهلها لثورتهم على العثمانيين[2]، وفي ٢٢ يناير ١٥١٧ التقى العثمانيون والمماليك في الريدانية، فانهزم المماليك، وفتحت ابواب القاهرة، وقد ذكر ان مصير مصر تقرر خلال ساعة واحدة[3]، فر السلطان طومان باي، ولكنه أعدم بعد القبض عليه، فصاح سليم الأول «الحمد لله، الآن استطيع القول بأننا ملكنا مصر»[4].

مكث السلطان سليم الأول بعض الوقت في مصر، فاستقبل سفراء الدول الأوروبية، ونظم البلاد، ثم عاد الى الاستانة، مصطحباً معه الخليفة العباسي المتوكل على الله، واختلف الرواة حول صحة تنازل المتوكل على الله عن الخلافة، فذكر الدكتور علي حسون[5] انه تنازل عن الخلافة وسلم الآثار النبوية الشريفة البردة واللواء، في حين ذكر فيليب حتي[6] «كان موت الخليفة خاتمة آخر فصل في تاريخ الخلافة العباسية، وسواء اتنازل عن منصبه للسلطان العثماني أم لم يفعل فإن الحقيقة الثابتة هي ان الحاكم في القسطنطينية ظل يتمتع بالتدريج بامتيازات الخلافة حتى انتهى به الأمر الى انتحال اللقب نفسه..

خضوع الحجاز للعثمانيين:

كان الحجاز يتبع مصر، لأن الحجاز بلاد فقيرة، ويعيش على الأوقاف المصرية المحبوسة على فقراء مكة والمدينة وعلى الحرمين الشريفين، ولذا فإنه عندما سقطت دولة المماليك في يد العثمانيين انتقلت مسؤولية الدفاع عن الأراضي المقدسة الاسلامية في الحجاز الى الدولة العثمانية، وكان السلطان سليم الأول حريصاً على ضم الحجاز لأهميته الدينية. فكتب الى شريف مكة بركات يدعوه الى قبول السيادة العثمانية، وسرعان ما وصلت بعثة حجازية يرئسها ابن الشريف بركات لتهنئة السلطان سليم،

(١) محمد عبد المنعم الراقد، الغزو العثماني لمصر ١٧٨.
(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ٥/١٣٢.
(٣) عمر عبد العزيز عمر، مرجع سابق، ٧٩.
(٤) محمد عبد المنعم الراقد، مرجع سابق، ١٩٢.
(٥) علي حسون، تاريخ الدولة العثمانية، ٥٧.
(٦) فيليب حتي، تاريخ العرب ٩١٢.

وسلم اليه مفاتيح الكعبة، وأقر بخضوع شريف مكة للسيادة العثمانية[١]. وكان من نتيجة بسط السيادة العثمانية على الحجاز محاولتهم دفع الخطر البرتغالي عنه، «ومنع دخول المراكب المسيحية في البحر الأحمر، وقد ظل هذا التقليد حتى أواخر القرن الثامن عشر»[٢].

العثمانيون والجزيرة العربية:

أعلن الحكام المماليك في اليمن ولاءهم للسلطان العثماني[٣] وصارت الخطبة باسم السلطان سليم، إلا أن الأوضاع اضطربت في اليمن، وفي سنة ١٥٣٨ نجحت حملة عثمانية من إعادة فتح اليمن وسيطروا على تهامة وزبيد وعدن[٤]، غير أن الزبيديين قاوموا الحكم العثماني، مما جعل العثمانيون يرسلون حملة سنة ١٥٦٨ بقيادة سنان باشا لفتح اليمن ثانية: ولكن الإمام الزيدي نجح في اخراج العثمانيين من اليمن سنة ١٦٣٥، ومد العثمانيون غزواتهم المنتصرة الى الخليج العربي، وسيطروا على عمان والاحساء والبحرين والكويت. وبذلك اصبحت أراضي شبه الجزيرة العربية ملحقة بالامبراطورية العثمانية اسميا، كما جابهت البحرية البرتغالية، وانتزعت منهم هرمز ومسقط، واجبرت البرتغال التخلي عن مشروعاتها في البحر الأحمر.

فتح العراق:

خضع العراق الأوسط والجنوبي للصفويين سنة ١٥٠٨، وقد رأى السلطان سليمان العثماني ضرورة انتزاع العراق من أيدي الصفويين، لاكمال الحصار البري والبحري حول الدولة الصفوية، وعزلهم تماما عن الوطن العربي، والقضاء على أي احتمال حدوث اتصال بحري بين البرتغال والصفويين، وعدم السماح للصفويين بتعاظم قوتهم من جديد لا سيما وان الشاه طهماسب الصفوي حاول عقد حلف مع الملك المجري ضد العثمانيين.

قاد السلطان سليمان حملة هزمت الصفويين، وانتزعت منهم بغداد ومناطق ايرانية اخرى عام ١٥٣٤، إلا أن الصفويين استعادوا العراق فجرد العثمانيون حملة

---

(١) ابن إياس، مصدر سابق، ١٩٣/٥.
(٢) محمد أحمد انيس، مرجع سابق، ٣٣.
(٣) عمر عبد العزيز، مرجع سابق، ٩٨.
(٤) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ٢٤.

أخرى سنة ١٥٣٨ أعادت العراق نهائياً الى العثمانيين، أما البصرة فقد أعلن حاكمها ولاءه للسيادة العثمانية[1]، وبهذا اصبح العراق ولاية عثمانية.

الدولة العثمانية والمغرب العربي:

استغل الاسبان حالة التفكك التي رانت على المغرب العربي، بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢، وتابعوا محاولاتهم تنفيذ وصية الملكة ايزابيلا باحتلال شمال افريقيا وتحويل اهلها الى المسيحية[2]، وقد دعم التجار الأوروبيون والكنيسة الكاثوليكية محاولات الاسبان والبرتغال هذه الوصية.

احتل الاسبان مليلة وطرابلس، والمرسى الكبير سنة ١٥٠٥ وهجموا على وهران وقتلوا وأسروا ١٢ ألف مسلم، ثم احتلوا الجزائر واتخذوها قاعدة حربية لهم، كما احتل البرتغاليون سبتة عام ١٤١٦ وغيرها من الموانىء. وتتابعت الهجمات الاسبانية لقتل المسلمين الهاربين من الاندلس الى المغرب العربي للنجاة بأرواحهم وعرضهم، وحاول أبناء شمال افريقيا حماية سفن المهاجرين الاندلسيين، ولكنهم لم ينجحوا في وقف هجمات الاسبان والبرتغال.

ووسط هذا العدوان وتمادي القوى الصليبية في اسبانيا في ملاحقة المسلمين اثناء فرارهم، شكلت بعض فرق الجهاد البحري من المسلمين المغاربة بقيادة الاخوان بابا عروج، وخير الدين بربروسا للرد على العدوان الصليبي. وقد استطاعا جعل جزيرة جربة قاعدة لهم، لجمع المتطوعين المسلمين، والسفن، وعندما طلب رجال القبائل من عروج حمايتهم من الاسبان، تقدم لمساعدتهم واستعاد ميناء وهران والمرسى الكبير من الاسبان، الا ان السلطان ابو حمو آخر حكام بني زيان استنجد بالاسبان، فأرسلوا له حملة استطاعت بمساعدة بني زيان محاصرة تلمسان سنة ١٥١٨، فتصدى لها بابا عروج ولكنه استشهد[3].

خلف خير الدين أخاه بابا عروج، فأعاد تنظيم قواته، وزود اسطوله بوحدات سريعة الحركة، وطلب مساعدة العثمانيين، وتمكن من احتلال ميناء بنزرت سنة ١٥٣٤، إلا أن الحاكم الحفصي استعاد بنزرت بمساعدة الاسبان سنة ١٥٣٥ وحرر الأسرى الاسبان البالغ

---

(١) عمر عبد العزيز عمر، مرجع سابق، ٩٣.

(٢) جلال يحيى، تاريخ العرب الحديث المدخل، ٣٦.

(٣) علي حسون، مرجع سابق، ٦٠.

عددهم ٢٥ الف مقاتل. وأخيراً تمكن خير الدين من القضاء على الحكم الحفصي بطرد سلطانهم مولاي الحسن حليف الاسبان سنة ١٥٤١، منح العثمانيون خير الدين لقب (بيكلر بيك افريقيا) وأعطوه قيادة الاسطول العثماني، وأصبح أسطوله الحارس الأمامي للدولة العثمانية في غرب البحر المتوسط، ولمع من المجاهدين البحريين أسماء أخرى كثيرة، مثل حسن باشا بن خير الدين، والعلج علي الذي نجح في تصفية القواعد الاسبانية في تونس سنة ١٥٦٩، وقد حاول الاسبان مهاجمة تونس بعدها، فتقدم الاسطول العثماني سنة ١٥٧٤ بقيادة سنان باشا وطرد الاسبان نهائيا من تونس.

أما طرابلس فقد احتلها الاسبان سنة ١٥١٠ ومنحوها لفرسان القدس يوحنا فساموا الناس سوء العذاب، فاستنجد السكان بالعثمانيين، فقاد سنان باشا حملة سنة ١٥٥١ تمكنت من طرد الاوروبيين، وتحرير طرابلس، وجعلها قاعدة من قواعد الجهاد البحري في شمال افريقيا.

وهكذا كان رجال البحر هم الوسيلة الفعالة في مد نفوذ العثمانيين في بلاد المغرب العربي باستثناء مراكش.

عزلة المغرب الأقصى:

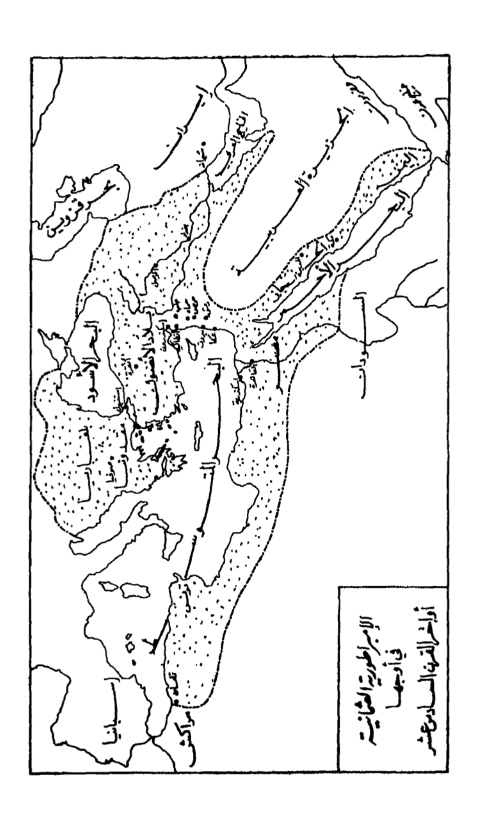
كان المغرب الأقصى يعاني من ظروف الضعف والتأخر والتفكك التي كان تسود البلاد، فقامت القوات الاسبانية والبرتغالية باحتلال معظم موانئه في الوقت الذي فشل سلاطين بني وطاس في دحر المعتدين، فأخذ المجاهدون المغربيون يعاونون المجاهدين البحريين الجزائريين لدفع هجمات الاوروبيين، وفي تلك الفترة ظهر المولى محمد بن عبد الرحمن في منطقة السوس، فوحد الصفوف، وكون الأسرة الحاكمة باسم الاشراف السعديين[1].

نجح السعديون في ضم مراكش وفاس الى دولتهم، وواصلوا الجهاد البحري، فاستطاعوا استرداد معظم المدن المغربية التي اغتصبتها القوى الصليبية، ولم يبق سوى طنجة وسبتة ومراغان، وحاول البرتغاليون الاعتداء على الاراضي المغربية، غير ان السعديين أوقعوا بهم هزيمة منكرة سنة ١٥٧٨ في معركة وادي المخازن.

اعتبر السعديون أنفسهم أحق من العثمانيين في حكم المغرب، فهادنوا الاسبان، وقاوموا المجاهدين الذين يتعاونون مع العثمانيين، واتجهوا بقواتهم لتخريب بعض

---

(١) جلال يحيى، تاريخ العرب الحديث/ المدخل ٤٧.


الإمبراطورية العثمانية
في أوروبا
أواخر القرن السادس عشر
البحر الأسود
بحر قزوين
الجزيرة العربية
إسبانيا
مراكش
السودان

موانيء الجزائر مما سهل على الصليبيين مهاجمة سواحل الجزائر، الا ان صالح رئيس المجاهدين البحريين اوقف التوسع المغربي، وصد الهجوم الاسباني، واخذ يستعد لانزال قواته والاسلحة والذخائر في الاندلس لدعم ثورته هناك.

ولما رأى المغاربة صلابة المجاهدين البحريين آثروا القوقعة على أنفسهم، وعاشوا في عزلة واضحة، ولم يحاولوا الاتحاد مع بقية المغرب العربي رغم استمرار الصلات والروابط وتشابه المصالح المغربية، وعندما ضعف السعديون أقامت الأسرة العلوية أسرة حاكمة في البلاد، وما زالت تحكم هذه الأسرة حتى اليوم.

وبقي المغرب الأقصى منعزلاً حتى وقع فريسة للنفوذ الأجنبي الاستعماري في أوائل القرن العشرين.

نتائج انضواء الوطن العربي تحت الحكم العثماني[1]:

أ - النتائج بالنسبة الى الدولة العثمانية:

١ - كان معظم رعايا الدولة العثمانية من الاوروبيين المسيحيين، وأكبر قسم من أرضها في اوروبا، أما الآن وبعد ان فتحت البلاد العربية زادت نسبة الرعايا العرب المسلمين في الدولة زيادة كبيرة، فأصبحت دولة شرقية اسلامية تضم رعايا اوروبيين مسيحيين، وأصبح لها سياسة اسلامية ومشكلات شرقية بالاضافة الى مشكلاتها الأوروبية.

٢ - جعل لها التوسع الجديد أهمية كبيرة اذ حكمت رقعة من الأرض تمتد على مساحات شاسعة تمتد في قارات اوروبا وآسيا وافريقيا، وكان عليها ان تواجه أعداء كثيرين، الامبراطورية النمساوية المتاخمة لها، محاولات اسبانيا والامارات الايطالية فرض سيادتها على البحر المتوسط، أطماع الدول الصفوية في العراق، تطلعات البرتغال للسيطرة على منافذ الجزيرة العربية المائية.

٣ - عجز الدولة العثمانية عن تتريك العرب، بل ان اللغة التركية لم تستطع الثبات أمام اللغة العربية، فاضطر الأتراك الى استعمال الحروف العربية، وشكلت الكلمات العربية ٤٠٪ من مفردات اللغة التركية، فاذا كان الترك انتصروا على العرب باحتلال أراضيهم، فإن العرب قد فرضوا ثقافتهم على الأتراك.

---

(١) توفيق برو، مرجع سابق، ص ١٠.

ب ـ النتائج بالنسبة الى العرب:

١ ـ بعد ان كان العرب دويلات متفرقة لا جامع سياسي يجمع بينها، وقعت كلها عدا مراكش في حوزة العثمانيين، وأصبحت تخضع لحكم واحد، ولا يخفى ما لذلك من قيمة في المحافظة على الوحدة العربية والثقافة..

٢ ـ انتقال عاصمة البلاد العربية الى خارج الوطن العربي ولأول مرة تصبح اللغة العربية ليست اللغة الرسمية في البلدان العربية.

٣ ـ استمرار تخلف الوطن العربي الاقتصـادي وفقدان الكثير من مزايـاه العلمية والثقافية والاجتماعية.

نظام الحكم العثماني في الوطن العربي

مميزات الدولة العثمانية العامة:

تميزت الدولة العثمانية بأنها دولة مجاهدة، وقد استند الجهاد على أساس قوي من النظام العسكري الذي قامت عليه الدولة، واعتبرت نفسها أنها قاعدة كبيرة للجيش، وسخرت موارد البلاد في خدمته للقيام بواجبه، وكانت للجيش وظيفتان هما الحرب والحكم، وشغل العسكريون المناصب العسكرية والمسؤوليات الحكومية في الدولة.

كما ان الدولة العثمانية تميزت بأنها دولة اسلامية، فعملت على تطبيق الشريعة الاسلامية، واهتمت ببناء المساجد في طول البلاد وعرضها، فارتفعت المآذن في الولايات المختلفة حتى في البلقان والمجر، واحترم العثمانيون العلماء والفقهاء ورجال الدين والديانات الأخرى، واهتموا بقوافل الحج.

وتميزت الدولة بأنها دولة اقطاعية سواء في استغلال الأراضي أو حتى في تجميع الرجال للحرب، فكانوا يمنحون الأراضي الزراعية لبعض الفرسان يشرفون على زراعتها ويعيشون فيها، وكان هذا النظام يسمح للدولة بأن تحصل على مجموعة من فرسان الاقطاعات وقت الحرب، وكانوا لا يتقاضون رواتب من الدولة، وكان النظام يهدف الى جمع الضرائب والرسوم، وامداد الدولة بما يلزمها من محاربين.

ويعتبر الحكم العثماني للوطن العربي حكماً أجنبياً[1] يرتكز على القوة العسكرية، ولذا وزعت القوات العثمانية في معظم المدن الكبيرة، فكان في القاهرة خمسة آلاف فارس، وخمسمائة من رماة البنادق أيام السلطان سليمان اقانوني[2].

وكانت السلطة العثمانية استبدادية في الوطن العربي ولا تتعارض مع الانظمة التي وضعتها السلطة المركزية لضمان سيطرة الدولة على البلاد اقتصادياً وعسكرياً.

وكان الحكم العثماني استغلالياً، فقد منح الاقطاعات لارباب الزعامة يستغلونها، ويمارسون سلطاتهم الاقطاعية في مقابل الالتزام بتقديم عدد من الجند للقتال مع السلطان[3] وقد أدى هذا الى خلق طبقة من الاقطاعيين العسكريين.

---

(١) محمد عبد المنعم الراقد، الغزو العثماني لمصر، ٢٦٠.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ٥/٢١٣.

(٣) الراقد، الغزو العثماني لمصر، ٢٦٥.

لقد أدى ذلك الى ظهور الدولة العثمانية وكأنها دولة أجنبية محتلة،ونظراً لاعتماد العثمانيين على الجيش فأظهر الوجود العثماني، وكأنه احتلال عسكري يقوم على حامية من الجنود.

النظام الاداري

هيئة الحكم المركزية:

كان نظام الحكم في عاصمة الدولة العثمانية يتكون من:

- **السلطان**: كان يتمتع بسلطة مطلقة، فهو يجمع جميع السلطات بيده[١]، فهو خليفة المسلمين والقائد الأعلى للجيش، وكانت السكة تضرب باسمه، ويدعى له في المساجد[٢].
- **الصدر الأعظم**: يشبه رئيس الوزراء في وظيفته، وكان السلطان يعينه، وكان يشرف على جميع شؤون البلاد، ويقيم في مركز الوزارة المسمى الباب العالي[٣] ويساعده عدد من الوزراء.
- **الديوان السلطاني**: يتكون من الوزراء وكبار الضباط، والموظفين، والعلماء والأعيان، ومهمته بحث شؤون الدولة وتقرير ما يراه مناسباً، وكان رأيه استشارياً. وكان يجتمع أربع مرات كل أسبوع في زمن السلم، وكان يعلو جميع الهيئات الموجودة في الدولة[٤].

ومن المناصب الهامة في العاصمة، منصب شيخ الاسلام، وهو يشبه وظيفة قاضي القضاة، وكان رئيساً للسلك القضائي، وترتبط به مختلف المناطق القضائية في الدولة، وهو المرجع الأعلى في الفتاوي.

وكان القادة العسكريون يتولون المناصب الادارية الى جانب مراكزهم العسكرية.

نظام الحكم في الولايات:

أ ـ التقسيمات الادارية:

قسم العثمانيون الوطن العربي الى ولايات تضم عدداً من الألوية او السناجق،

(١) جلاد يحيى، العالم الاسلامي، ٥٧١.
(٢) محمد عبد المنعم الراقد، الغزو العثماني لمصر، ٢٦٦.
(٣) جلال يحيى، العالم الاسلامي، ٥٧٨.
(٤) جلال يحيى، العالم العربي الحديث المدخل ٥٧.

وتشتمل كل منها على عدد من المتصرفيات؛ فكانت بلاد الشام ثلاث ولايات[1] دمشق وحلب وطرابلس، وكان العراق يشمل ولايات البصرة وبغداد والموصل وشهريزور في المناطق الكردية، أما الحجاز فقد بقيت تحت حكم الاشراف، في حين كانت مصر ولاية واحدة، وكان عدد الولايات يختلف باختلاف الظروف العسكرية والادارية. أما المغرب العربي فكانت السلطة مركزة في أيدي بك بكوات (داي) الجزائر، ويشرف على ولاية تونس (باي) مندوباً عنه، في حين كانت طرابلس ولاية قائمة بذاتها.

وكانت سلطة الوالي مطلقة في ولايته، وكان في كل ولاية ديوان يتألف من كبار الضباط والموظفين والأعيان، وقد استعان العثمانيون بالمماليك لحكم مصر، فأصبحوا منافسين أقوياء للوالي، كما أصبح أصحاب العصبيات في بلاد الشام ينافسون الوالي في سلطته مما أدى الى سوء أوضاع الولايات. وقد جرت العادة ان يغير الولاة في اوقات غير متباعدة حتى لا يستقلوا بالمناطق التي يحكمونها.

ب ـ الادارة المالية:

نظم العثمانيون الادارة المالية لضبط ادارة الولايات العربية ومصروفاتها، وقد تكونت الادارة المالية من عدة دواوين أهمها:

- **الديوان الدفتري:** ويرأسه الدفتردار، وكانت مهمته تحصيل الضرائب المتنوعة، وتسهيل ارسال الأموال للسلطان، وكان يطرح الالتزام في المزاد العلني، ويقرر على من يرسو عليه المزاد.

- **ديوان الرزنامة:** وكانت مهمته جمع الأموال الأميرية، وصرفها في وجوهها المختلفة تحت إشراف الديوان الدفتري.

وقد نص القانون الذي صدر أيام سليمان القانوني على حصر الأراضي وتقدير ضرائبها، ففي عام ١٥٢٦ أعطت الدولة العثمانية حق جميع ضرائب الأراضي (نظام الالتزام) عن طريق المزاد العلني، وكان السعر المحدد لفتح المزايدة خمسة أضعاف قيمة الضريبة المقدرة، وعند انتهاء المزايدة يحيل الرزنامة الملتزم الى الديوان الدفتري لتقسيط الالتزام. وكان على الاهالي الخضوع لأوامر الملتزم ودفع الضريبة التي قررت قيمتها، وكان الوالي يتعاون مع الملتزم لاجبار الفلاح على دفع الضريبة، وتنفيذ العقوبات ضده، اذا حاول الهرب، وكانت تصل الى حد الاعدام أحياناً[2].

---

(١) محمد عبد المنعم الراقد، مرجع سابق، ٢٨٢.

(٢) حسن عثمان، المجمل في التاريخ المصري، ٢٦٦.

وكانت الضرائب غير العقارية( ) تشمل الجمارك، والعوائد المفروضة على الصناعة، والاتاوات على التجار والجزية على أهل الذمة.

القضاء والتشريع:

كان السلطان العثماني يعين قاضي عسكر أفندي قاضياً للقضاة، ويختار هذا بدوره قضاة ينوبون عنه في الولايات، وكانت الهيئة الاسلامية في الدولة العثمانية تضم مناصب القضاء والافتاء والتدريس[1]، وكانت الشريعة الاسلامية مصدر القضاء في العهد العثماني، وكان على القاضي ان يدفع مبلغاً من المال عند تعيينه لأولى الأمر بالآستانة[2]، وكان يقوم بجمع رسوم عقد الزواج، والحج، والقضاء. وكانت الهيئة الاسلامية تشرف على المساجد، وكان العلماء يعفون من الضرائب.

القوات العسكرية:

كانت القوات العسكرية في الولايات العربية متنوعة، منها الانكشارية، وهي القوة الرئيسة في الدولة، وقد ارتبطت عظمة الدولة وهيبتها بها في الفترة الأولى، وكان الزواج محرماً على رجال الانكشارية، ولذلك كانوا لا يعرفون سوى السلطان كوالد لهم، وقد عهد اليها بحماية الولايات وحفظ الأمن، وقد فسدت الانكشارية فيما بعد. وكان الجيش يتشكل من المشاة والخيالة والمدفعية.

وهناك الاقطاعات العسكرية التي كانت تعهد الى الفرسان الملزمين بتأدية الخدمة العسكرية، والحضور في العرض العسكري بصورة منتظمة، والمساهمة في الحملات مع فرسانهم المحاربين، وكان يحدد عدد الفرسان بموجب سعة الاقطاعية، اذ كان يجند فارس واحد لقاء كل ثلاثة آلاف أقجة من الدخل[3] وكانت الاقطاعات العسكرية التي يزيد دخلها عن عشرين ألف أقجة تسمى زعامت ويملكها زعيم، اما التي لا يتجاوز دخلها عشرين ألف اقجة فكانت تسمى تيمار، ويملكها تيماري.

وهناك الجنود المرتزقة الذين قدموا للخدمة في الجيش العثماني نظير أجر معين.

---

(١) جلال يحيى، العالم الاسلامي، ٥٧٩.

(٢) محمد عبد المنعم الراقد، مرجع سابق، ٣٠٧.

(٣) لوتسكي: تاريخ الاقطار العربية الحديث، ١١.

سياسة العثمانيين في حكم الوطن العربي

كانت فكرة الحكم عند العثمانيين بسيطة[1]، فقد اقتصرت وظيفة الدولة على حفظ الأمن، وجمع الضرائب والفصل في الخصومات، واعتبرت الخدمات العامة مسؤولية الأفراد والجماعات، ولذلك ساءت أحوال الشعب العربي اقتصادياً وثقافياً واجتماعياً.

احتفظ العثمانيون بالبناء الاجتماعي والاقتصادي الذي كان سائداً في الوطن العربي، قبل دخوله في حوزتهم، فتركوا للعرب الاحتفاظ بلغتهم وعاداتهم وتقاليدهم، وكان المجتمع في نظر العثمانيين ينقسم الى طبقة الحكام، وقد كانوا طبقة ارستقراطية حاكمة منعزلة عن المجتمع، وطبقة الرعية المحكومة، ومهمتها خدمة الأتراك[2].

وقد حافظت الدولة على الطوائف، فكان المجتمع ينقسم الى طوائف لكل منها دستورها غير المكتوب من عادات وتقاليد موروثة، ولها شيخ يتولى تنظيم علاقاتها بالدولة، فساعد هذا العرب على الاحتفاظ بمقوماتهم الثقافية، بل ان العرب كان لهم الدور الكبير في النظام القضائي للدولة العثمانية،لأنه كان قائم على الشريعة الاسلامية.

وأحاط العثمانيون الوطن العربي بسياج من العزلة رغبة في الابقاء عليه تحت حكمهم، وبذلك انقطعت اتصالاته الاقتصادية والحضارية عن العالم، الا ان هذه العزلة استطاعت دفع الوطن العربي عن غائلة الاستعمار العسكري الأوروبي حتى أواخر القرن الثامن عشر، كما حافظت على تماسك الوطن العربي. ودعمت النظم الموجودة فيه على أن يسير الجميع على بركة الله، وباسم السلطان[3].

ترابط الوطن العربي في ظل العثمانيين:

ساعدت طبيعة الحكم العثماني على حفظ مقومات العرب، وكان الترابط العربي يغذي هذه المقومات، وكان الحج والمعاهد العلمية والاتصال الثقافي من أوضح مظاهر هذا الترابط.

كان الحج مجالاً للتبادل الثقافي والتجاري، فكان بعض الحجاج من طلاب العلم يتوقفون في دمشق والقاهرة او مكة لعدة سنوات لتلقي العلم أو التدريس» وكان التعليم في

(١) محمود المنسي، حركة اليقظة العربية، ٣١.
(٢) محمد أنيس، الدول العثمانية والمشرق العربي، ١٤٧.
(٣) جلال يحيى، تاريخ العرب الحديث، المدخل ٥٥.

الوطن العربي يؤدي وظيفة اجتماعية اكثر منها تعليمية في العهد العثماني[١]، فقد حفظت المعاهد العلمية التراث الحضاري العربي، فقام الأزهر بدور هام في الحفاظ على اللغة العربية، كما كانت دمشق والقدس مراكز هامة لرجال العلم.

لقد أوجد استيلاء العثمانيين على الوطن العربي وحدة سياسية أكسبته الاستقرار الذي افتقده منذ سقوط بغداد سنة ١٢٥٨،ولم يعد بين أجزاء الوطن العربي حدود سياسية، ولا حواجز جمركية تقف في وجه انتقال العربي من قطر إلى آخر.

صحيح ان أوضاع الوطن العربي ساءت وأدت الى التخلف في مختلف الميادين، إلا أن العرب لم يحاولوا الانفصال عن الدولة العثمانية، إذ كانت الرابطة الدينية تربط العرب والعثمانيين، وبلاد المسلمين تعتبر دولة واحدة «دار الاسلام» ولم يشعر العرب بأنهم يختلفون عن حكامهم طالما تجمعهم رابطة الدين، بل كانوا يعتبرون ان الدولة هي دولتهم، وان السلطان هو حامي الاسلام، ورافع لواء الجهاد ضد الكفار[٢]، ولم تكن كلمة عرب تطلق عليهم بل كانت تطلق تسميتهم الشائعة هي كلمة المسلمين، هم والترك على السواء، وقد ظهرت أمثلة كثيرة لترابط العربي على المستوى الاسلامي كتقدم متطوعي الحجاز بقيادة الكيلاني لمساعدة ثورة الصعيد ضد الحملة الفرنسية[٣].

حالة الوطن العربي في القرن التاسع عشر

أصبح الوطن العربي في القرن التاسع عشر في حالة من التأخر والضعف والاضمحلال في شتى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، فاضطرب الأمن، وعمت الفوضى، وكثرت عصابات اللصوص، ونهبت القوافل، واصبح الناس غير آمنين على حياتهم وارزاقهم.

ففي الحياة السياسية اخذ الحكم العثماني يضعف قليلا قليلا في المغرب العربي، فقد اصبحت الجزائر شبه مستقلة منذ مطلع القرن السابع عشر، واستمرت تبعيتها الاسمية للدولة العثمانية الى ان احتلها الفرنسيون في عام ١٨٣١، كما ارتبطت تونس اسمياً بالدولة العثمانية، واصبح حاكم تونس شبه مستقل في تونس، الى ان فرضت فرنسا الحماية على البلاد عام ١٨٨٢، اما ليبية فتأرجحت بين التبعية الاسمية للدولة

(١) محمد انيس، مرجع سابق، ٢٢٦.
(٢) محمود منسي، حركة اليقظة العربية، ٣٤.
(٣) محمود منسي، نفس المصدر، ٣٥.

العثمانية اثناء حكم الاسرة القرمنلليه، وعودتها كولاية عثمانية سنة ١٨٣٥ الى ان استعمرها الايطاليون سنة ١٩١٢.

وفي المجال الاقتصادي فقد اتصف باقتصاد كفاف، كما ان انعدام الأمن، واهمال الطرق قد انعكس على الاقتصاد، فتأخر الانتاج الزراعي لاستخدام الفلاحين الأساليب القديمة في الزراعة، كما هجر قسم كبير مزارعهم لسوء نظام الالتزام في جمع الضرائب، وتوزيع قسم من الأراضي على امراء السناجق وكبار الموظفين والجنود، وتحويلها الى اقطاعات عسكرية. وظلت الصناعة بدائية تعتمد على العمل اليدوي، فتأخرت لزيادة الضرائب المفروضة عليها، واحتكرت بعض الاسر الصناعة، فقل التجديد والابتكار لتحسين الانتاج الصناعي، وساعد على تخلف الصناعة استمرار العمل بانتظام الطوائف الحرفية. أما التجارة فبقيت ضعيفة بالرغم من استعادة الطريق البرية التي تمتد من الخليج عبر العراق الى موانىء البحر المتوسط، في حين ساعدت قوافل الحج على نشاط التجارة الداخلية ولا سيما في مصر والشام والحجاز والعراق.

وفي المجال الاجتماعي، فقد كان تأثير الحضارة العثمانية ضعيفاً، لذلك حافظ العرب على اللغة العربية وعلى تقاليدهم وعاداتهم، الا ان سوء الوضع الصحي ادى الى انتشار الأمراض، وزيادة عدد الوفيات وتناقص السكان، كما كثرت غارات البدو على القرى والمدن، وانتشرت العصبيات ولا سيما بين القيسية واليمنية، وقد انقسم المجتمع الى عدد من الطبقات الاجتماعية:

- طبقة الحكام ومعظمهم من الأتراك الذين كان همهم جمع الثروة.
- طبقة الاقطاعين وهم اصحاب الاقطاعات العسكرية وبعض الملتزمين.
- طبقة اصحاب العصبيات ورؤساء العشائر.
- طبقة العلماء، وكانوا يأخذون مخصصاتهم من عائدات الأوقاف، وقد اعفوا من الضرائب.
- الطوائف غير الاسلامية، وقد اعفيت من الخدمة العسكرية وكان لهم نظمهم وتقاليدهم.
- طبقة عامة الشعب. وقد حرموا من كل شيء. فعليهم دفع الضرائب ولا امتيازات لهم.

أما الحياة الفكرية فكانت مهملة، اهمل التعليم، وشاعت الأمية، وضعف شأن اللغة العربية، واقتصر التعليم على الكتاتيب التي تعلم القرآن وبعض مبادىء القراءة

والكتابة والحساب، ومع ذلك فقد اسهمت المساجد وبعض دور العلم الاسلامية كالجامع الأزهر في مصر وجامع الزيتونة في تونس في حفظ التراث الأسلامي العربي. وكان من مظاهر ضعف الحياة الفكرية انتشار الطرق الصوفية، وقد انحط التصوف من فلسفة الى دروشة[1]، وقد ادّى ذلك الى ظهور بعض الحركات الاصلاحية الاسلامية لاعادة الاسلام الى مصدره الحقيقي الكتاب والسنة، ومن هذه الحركات، الوهابية، السنوسية والجامعة الاسلامية، والحركات الصوفية في شمال افريقيا،وقد لعبت هذه الحركات دوراً كبير في الحياة السياسية والروحية في الوطن العربي.

محاولات الانفصال عن الدولة العثمانية

وضعت الدولة العثمانية نظاماً ادارياً استهدفت منه عدم انفراد اية هيئة في الولايات العربية بالسلطان والنفوذ، فجعلت الى جانب الوالي قادة الانكشارية، وكذلك ذوي الجاه والسلطة من اصحاب البلاد، فكان كل فريق يراقب الفريق الثاني، غير ان انغماس الولاة العثمانيين في جمع الثروات لانفسهم، وارسال الضرائب الى الاستانة، بالاضافة الى انشغال الدولة العثمانية بمشاكلها الخارجية، وضعف قواتها العسكرية هيأ الظروف لقيام بعض الفتن والحركات الانفصالية في العراق وبلاد الشام ومصر وطرابلس وولايات المغرب العربي.

اضطربت أحوال العراق في القرن السابع عشر، وتبادل السيطرة عليه العثمانيون والصفويون، وزاد في اضطراب العراق تطلع زعماء العشائر الاستقلال بشؤونهم، ولم تستطع الادارة العثمانية صد غاراتهم المخربه بسبب انطلاقهم في الصحراء، وبهذا فقد اهل العراق حياة الاستقرار وساءت احوالهم الاجتماعية والاقتصادية.

استغل والي بغداد حسن باشا (١٧٠٤ ـ ١٧٢٤) عدم استقرار احوال العراق، وكون له جيشاً من المماليك يحميه من العزل، وتبعه في ذلك ابنه احمد باشا الذي اعترفت فيه الدولة العثمانية واليا على العراق.

وعندما توفي احمد باشا خلفه أحد مماليكه سليمان الذي لقب «ابو ليله» لكثرة غاراته المفاجئة على القبائل البدوية في الليل، وبذلك صار اول والٍ من المماليك في العراق

(١) محمد عبد السلام كفافي واخرون، المجتمع العربي، ص٢٢٢.

سنة ١٧٥٠[١]، واستطاع ان يسيطر على العراق، وزاد في عدد المماليك، وامتنع عن ارسال الجزية الى استانبول[٢]، واعترف به السلطان واليا على بغداد[٣]، وقد استمر حكم المماليك حوالي ثمانين عاما، ولم تستطع الدولة القضاء عليهم الا في اوائل القرن التاسع عشر بعد وفاة آخر مملوك داود باشا سنة ١٨٣٠[٤].

وقامت محاولات عديدة للانفصال في بلاد الشام ابرزها محاولات:

أ ـ فخر الدين المعنى الثاني (١٥٩٠ ـ ١٦٣٥)

تنتسب أسرة الامرآء المعنيين الى عشيرة عربية قد قدمت من منطقة حلب الى لبنان في اثناء الغزو الصليبي في القرن الثاني عشر الميلادي، واشتركت في مقاومتهم، وقد تصاهروا مع التنوخيين، واستقروا في منطقة الشوف حتى اذا استولى السلطان سليم الأول على بلاد الشام قدم الأمير فخر الدين المعني الأول ولاءه له، فأقره على امارته، ومنحه لقب «سلطان البر» الا ان الأمير فخر الدين اغتيل في ظروف غامضة، ولقي ابنه «قور قماز» مصرعه سنة ١٥٨٤ على يد العثمانيين بنتيجة مؤامرة دبرها آل سيفا امراء عكار، وقد استطاعت زوجته ان تنقذ ولديها فخر الدين الثاني ويونس من مجازر الترك فتعهدهما آل تنوخ.

وفي عام ١٥٩٠، استلم فخرالدين امارة الشوف، وكان الحقد يغلي في دمه ضد الدولة، وضد اعداء اسرته من آل سيفا. وحاول اعادة مجد أسرته في لبنان، فوطد علاقته بالعصبيات المجاورة له، واعلن عهداً من التسامح الديني والمساواة المطلقة بين المسلمين والمسيحيين على مختلف طوائفهم، فاحرز بذلك ثقة الجميع ومحبتهم. وأسس قوة عسكرية اعتمدت على فلاحي جبل لبنان، وكان قوامها ٤٠ الف جندي، وقوى صلاته بالشهابين والشيعة، وكسب ود الدروز بمصاهرتها، وحسن الزراعة، وشجع التجارة مع فلورنسا[٥]، ووضع لبنان في طريق التقدم والعمران[٦]، وسيطر على صيدا وبيروت وحوران وعجلون في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية منشغلة بمشكلاتها الداخلية والخارجية.

---

(١) عمر عبدالعزيز عمر، تاريخ المشرق العربي، ص٦٧.

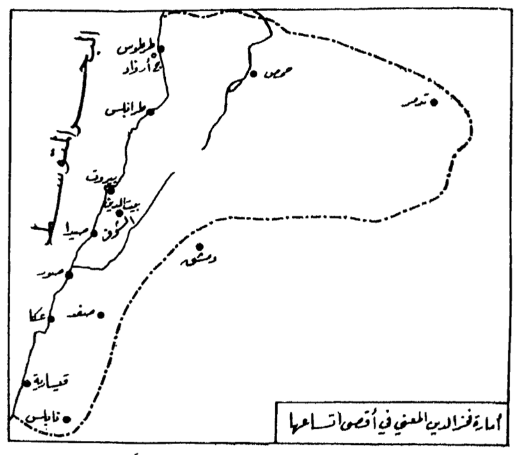
(٢) جلال يحيى، تاريخ العرب الحديث، المدخل، ص٧١.

(٣) عبد الكريم غرايبه، مقدمة، تاريخ العرب الحديث، ص١٢٩.

(٤) فليب حِتى، تاريخ العرب، ص٨٦٨.

(٥) جلال يحيى، المدخل، ص٦٧.

(٦) حتى، تاريخ العرب ٨٥٩.



امارة فخر الدين المعني في أقصى اتساعها

وشرع فخر الدين في ابرام اتفاقات خارجية خصوصاً مع امارة توسكانا في ايطاليا، اخذت في بادىء الأمر صفة تجارية هدفها تسهيل التبادل التجاري، وفتح الموانىء اللبنانية والسورية للتجارة الاوروبية، حتى اصبحت تعج بالسفن من جميع الجنسيات، ثم تطورت الى اتفاقات سياسية ترمي الى مد الأمير بالاسلحة والدخائر والسفن والفنيين.

وهكذا تمكن الأمير من ان يتعهد نهضة شاملة في البلاد، فقد وطد الأمن، وعنى بالتنمية الاقتصادية من تنشيط للزراعة، ولا سيما زراعة التوت، وتربية دودة الحرير والنحل بالاضافة الى زراعة القطن والزيتون والقمح والحبوب والكرم.

شعرت الدولة بالخطر الذي يحيق بها من حركة الأمير فخر الدين، ولا سيما اتصاله بالاجانب، وكلفت احمد حافظ باشا والي دمشق بالقضاء على حركته. ولما احس فخر الدين الثاني بعجزه هرب الى ايطاليا سنة ١٦١٣، واقام خمس سنوات استطاع ان ينال عفو الدولة عنه، فعاد الى لبنان بعد ان اطلع على مظاهر التقدم الحضاري في

ايطاليا، ولا سيما مصانع الاسلحة، والمصارف والمستشفيات والمعاهد التعليمية والمتاحف، والزراعة..

عاد فخرالدين يعمل لتحقيق اهدافه والاستقلال عن الدولة بمساعدة اجنبية، فاستغل انشغال الدولة بحروبها مع الصفويين فنكل بآل سيفا، ووسع نفوذه، واستولى على صفد ونابلس وعجلون، وهزم والي دمشق، ووطد علاقته مع الموارنة، ببناء الكنائس والاديرة[1] وشجع الارساليات الاوروبية في بلاد الشام، لذلك صمم العثمانيون التخلص منه، فتقدمت القوات وساقته الى الاستانة، واعدمته واولاده.

ب - الشيخ ظاهر العمر الزيداني

ينتمي الى قبيلة الزيادنة التي كانت في بيت اكسا قضاء القدس وقد انتقل والده في اواخر القرن السابع عشر، واستقر في صفد، واخذ التزام طبرية من والى صيدا، وفي عام ١٦٩٨ اصبح عمر شيخا على صفد، ولما مات اختار اهل طبرية وصفد ابنه الظاهر حاكما لهم سنة ١٧٣٣، ووسع نفوذه في صيدا، ويافا، وحيفا والرملة ونابلس، وقد ادرك اهمية السيطرة على الساحل ليؤمن له نقطة الاتصال بالعالم الخارجي، فلا تظل حركته محصورة في الداخل، ولذا تقدم نحو عكا فاحتلها، وكانت عكا تتمتع بموقع حربي ممتاز لمناعة حصونها، واصلح الابراج، واستمال شيوخ القبائل، ووطد علاقاته مع جيرانه الشيعة في لبنان الجنوبي وعقد معهم معاهدة دفاعية هجومية، كما اتبع سياسة التسامح الديني فاشرك النصارى في الحكم.

حاول الظاهر عمر توطيد حكمه في البلاد، فوطد الأمن وضرب على ايدي العابثين به بشدة متناهية، وقيل «كانت المرأة تسافر في عهده حاملة الذهب بيدها دون خوف من أن تتعرض لاذى»[2] وشجع زراعة القمح والقطن والتوت وتربية دودة القز وصناعة الحرير، واعفى الفلاحين من الضرائب في السنين القاحلة وكان يقدم لهم البذور، ونشط التجارة، واقام علاقات تجارية وودية مع التجار الفرنسيين، وامدهم بالقمح والقطن، كما شجعهم ليأتوا بمتاجرهم الى الموانىء التابعة له، ولا سيما عكا التي اصبحت مركز الولاية.

---

(١) عمر عبد العزيز، مرجع سابق، ١٦٧.
(٢) حتى، تاريخ العرب، ٨٦١.

تعاون الظاهر عمر مع علي بك في مصر لدعم سلطته في بلاد الشام ولمواجهته والى دمشق، فقوى مركزه، وصار له نفوذ كبير، كما اتصل بالروس لتوطيد علاقاته السياسية مع الخارج.

حاول الحصول على الاستقلال الذاتي في عكا له ولا ولاده من بعده، وباعطائه حكم طبرية وبلاد الجليل طول حياته، ولكن الدولة العثمانية لم تستجب لطلبه فأعلن الثورة على الدولة العثمانية سنة ١٧٥٠، وطلب مساعدة الاسطول الروسي الذي كان موجوداً في البحر المتوسط.

كلفت الدولة العثمانية والى دمشق القضاء على حركة ظاهر العمر الا ان تحالفه وعلي بك، اسفرت عن تقدم قوات علي بك بقيادة محمد ابو الذهب نحو مكة واليمن وادخالها في طاعة علي بك، ثم تقدمت لمساعدة ظاهر العمر ضد الدولة العثمانية، الا ان محمد ابو الذهب تعاون مع الدولة العثمانية، وعاد الى مصر وقضى على علي بك وحل مكانه في حكم مصر.

ارسلت الدولة العثمانية بعد انتهاء الحرب مع روسيا قوة كبيرة واسطولا قويا لمقاتلة ظاهر العمر، وتمكنت من اغراء رجاله بالمال، فتربص له احدهم وارداه قتيلا، ويقال انه حاول الهرب عندما اشتدت الدولة العثمانية بمحاصرة عكا، وازداد القصف المدفعي لعكا، ولكنه اغتيل اثناء هربه سنة ١٧٧٥ وتعلل فشل حركته لخيانة ولده وتعاونه مع العثمانيين[١].

ومما يؤخذ على الظاهر العمر عصيانه وتمرده على الدولة اثناء انشغالها بمحاربة روسيا، بل انه استعان بروسيا عدوة الدولة العثمانية اللدودة[٢] مما ادى الى اعتباره خارجاً على الخلافة الاسلامية، وابتعاد اتباعه عنه.

جـ ـ احمد باشا الجزار

وكان أحد مماليك علي بك الكبير وبعد مقتل سيده انضم الى الأمير يوسف الشهابي الذي ولاه بيروت فدافع عنها ضد الروس.

انشأ جيشاً قوياً من المماليك والمرتزقة، حكم ولاية دمشق عدة مرات، وعين مماليكه ولاة على صيدا وطرابلس، فحكم بلاد الشام باستثناء حلب، وقد عرف بالجزار

(١) عبد الكريم غرايبه، تاريخ العرب الحديث، ص٤٨

(٢) جلال يحيى، المدخل، ص٧١

لبطشه ومصادرته اموال التجار والفلاحين، ويقال انه امر بقتل جميع نسائه لخلافهن فيما بينهن، وهو مغامر جريء.

اشترك في قتال ظاهر العمر، فكافأته الدولة بان عينته والياً على صيدا، ثم ضم اليه عكا، وكان كثيرا ما يصادر اموال التجار والفلاحين مما ساعد على تدهور الاحوال الاقتصادية.

رغم اتساع نفوذ الجزار، فلم يفكر بالخروج على الدولة العثمانية، الا أن الدولة خشيت من اتساع سلطته ففكرت بعزله لولا قدوم الحملة الفرنسية بقيادة نابليون الى سوريا ١٧٩٩م، واحتلالها للساحل السوري، ومحاصرتها لمدينة عكا حيث صمد الجزار فارتفعت مكانته لدى السلطان العثماني، فاستمر في الحكم الى ان توفي سنة ١٨٠٤.

ومما يلاحظ ان معظم الحركات الاستقلالية في بلاد الشام كانت تنبعث من جبل لبنان وفلسطين لمناعة المنطقة، ولسهولة اتصالها مع الخارج، وكانت معظم الحركات الانفصالية في سوريا تتحالف مع مصر لمقاومة الدولة العثمانية.

وقد قامت حركات انفصالية في مختلف البلدان العربية، فقد اصبح المماليك في مصر اصحاب اقطاعات واسعة من الأراضي في مطلع القرن الثامن عشر، وبالتالي المالكين لناصية الأمور في مصر، وعرف زعيمهم بلقب شيخ البلد، وكان اذا غضب على الوالي عزله وعين وال مكانه.

وفي عام ١٧٦٣ صار علي بك الكبير شيخ البلد في مصر، وكان طموحاً، وتطلع الى الاستقلال بمصر، وبدت الفرصة سانحة لتحقيق آماله عندما اشتبكت الدولة العثمانية في حرب مع روسيا[١]، ولما شك فيه السلطان اصدر امراً بعزله عن مشيخة البلد، ولكن علي بك اعلن استقلال مصر، وحالف الشيخ عمر الزيداني.

وفي عام ١٧٦٩ ارسل حملة بقيادة محمد بك ابو الذهب اعادت امير مكة الشريف عبدالله الى منصبه[٢]، ثم ارسل حملة أخرى بعد عامين بجراحه سنة ١٧٧٣[٢] ولم يحكم أبو الذهب الا وقتا قصيرا.

---

(١) جلال يحيى، المدخل، ص٧٠

(٢) عبدالعزيز نوار، تاريخ العرب المعاصر، ص٧٢.

استمال السلطان العثماني محمد بك ابو الذهب، واغراه بالانقلاب على سيده، فتمكن من القضاء عليه، ومات علي بك متأثراً بجراحه سنة ١٧٧٣[١] ولم يحكم ابو الذهب الا وقتا قصيرا.

وكما حدث في لبنان حدث في اليمن، اذ تمكن الزيديون من الاستقلال، وحكمت اسرة حميد الدين البلاد حوالي قرنين ونصف بعد ان عجزت الدولة العثمانية عن اخضاعهم حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر[٢].

وفي الجزائر اخذت الروابط بين الدولة العثمانية والمجاهدين البحريين تضعف مع الزمن، واصبحت الجزائر تشبه جمهورية عسكرية اذ كان قادة الجيش يشكلون ديواناً ينتخبون من بينهم داياً على البلاد[٣]، يعترف بالسيادة العثمانية، ويتلقى منهم مرسوماً بتعيينه وخلعة وسيف شرف، وكان مستقلاً في تصريف شؤون الجزائر الا انه ينفذ سياسة التضامن الاسلامي.

وكان داي الجزائر يعين أحد البكوات أو رؤساء البحر نائبا عنه لحكم تونس، وقد استطاع محمد حسين بن علي تأسيس اسرة تحكم تونس الى عام ١٩٥٧، الا ان الرابطة الاسلامية بقيت تجمع بين تونس والجزائر والدولة العثمانية.

أما ليبيا فقد خضعت لرؤساء البحر العثمانين، الى ان تمكنت اسرة احمد باشا القرمانلي من الاستيلاء على السلطة سنة ١٧١١،وأسس اسرة تحكم ليبيا حتى عام ١٨٣٥، إلا ان الدولة العثمانية تمكنت من اعادة طرابلس الى سلطتها المباشرة سنة ١٨٣٥، وقد حكم ستة امراء من الاسرة القرمنلية حكماً وراثيا، شعرت الولاية بشيء من الاستقرار في بداية حكم هؤلاء الامراء فرممت القلاع، وجعلت اللغة العربية هي اللغة الرسمية للبلاد[٤]. وشجعت الزراعة، ويعاب على الأسرة القرمنلية انها سمحت للفرنسيين باتخاذ ميناء درنة منفذاً لتلقي الامدادات الآتية لهم من فرنسا،وادخالها الى مصر عن طريق البر اثناء الحملة الفرنسية على مصر، كما انهم ارهقوا السكان بالضرائب فجأروا بالشكوى من هذه الضرائب واشتعلت الثورة، فتقدم الاسطول العثماني، والقي القبض على «علي باشا» القرمنلي، وعادت ليبيا لحكم الاستانة مباشرة.

---

(١) عمر عبد العزيز عمر، مرجع سابق، ص١٤٨
(٢) جلال يحيى، المرجع السابق، ص٥٩.
(٣) جلال يحيى، المدخل، ص٧١.
(٤) احمد الشلبي، مرجع سابق، ص٤/٣٦٢

محمد علي

تولي محمد علي السلطة

ولد محمد علي في قوله، على الساحل المقدوني ببلاد اليونان سنة ١٧٦٩، وعمل بتجارة التبغ، وفي عام ١٧٩٩ كان احد افراد الحملة البحرية التي ارسلها السلطان سليم الثالث التي كلفت بمحاربة الفرنسيين في مصر، واشترك في بعض المعارك ضد الفرنسيين، واصبح الرجل الثالث في الجيش العثماني الموجود في مصر.

تمرد الجند على والي مصر خسرو باشا، وعينت استانبول خورشيد باشا واليا على مصر، واستطاع محمد ان يستغل هذا الوضع، ويتعاون مع المماليك، ويتقرب الى الشعب العربي فاكتسب ثقة الجميع ولا سيّما العلماء، في الوقت الذي فرض خورشيد باشا الضرائب العالية على الشعب المصري، واساء معاملة المصريين، وسرعان ما اعلن زعماء الشعب المصري عزل الوالي خورشيد باشا، واختيار محمد علي واليا عليهم في مايو سنة ١٨٠٥، والبسه السيد عمر مكرم، والشيخ الشرقاوي خلعة الوالي، ولم يخضع خورشيد لقرار العزل الصادر من الفلاحين، وتحصن بالقلعة، وجدت الدولة العثمانية من الحكمة ان توافق على تعيين محمد علي بموجب الفرمان الذي اصدره السلطان سنة ١٨٠٥.

المشكلات التي واجهت محمد علي

واجهت محمد علي مشكلات عديدة، فقد كانت الفترة التي تلت فشل الحملة الفرنسية وجلائها عن مصر مليئة بالفوضى، ذلك ان الدولة العثمانية حاولت استعادة سلطانها على مصر، وحاول المماليك اعادة سيطرتهم كما شعرت بريطانيا باهمية موقع مصر على الطريق التجاري الى الهند المستعمرة البريطانية فاحتضنت زعيم المماليك الالفي، وحاولت وضعه في مكان القيادة، ليضمن لهم تيسيرات اقتصادية وسياسية في البلاد، ولكن الحظ ساعد محمد علي اذ مات البرديسي سنة ١٨٠٦، والالفي سنة ١٨٠٧ وهما زعيما المماليك المشهوران.

وكان الشعب المصري ممثلا في شيوخه عقبة في طريق الوالي الجديد الذي يرى فيهم منافسين له، فكان ينوي التخلص من سيطرتهم حتى يخلو له الأمر، فبث الوقيعة بين العلماء، واغرى بعضهم بالمال[1]، وفرض الاقامة على شيخ الأزهر عبد الله

---

(١) جلال يحيى، العالم العربي الحديث، ص٨٧

الشرقاوي، ونفي عمر مكرم اقوى زعيم الى دمياط، وهكذا تخلص من زعماء مصر وقادتهم الذين نصبوه واليا.

وأخيراً تخلص من المماليك بمذبحة القلعة سنة ١٨١١[١].

حملة فريز

أعد الانكليز حملة لدعم الألفي بقيادة الجنرال فريز، ومع ان الالفي توفي سنة ١٨٠٧ الا ان الحملة استمرت في سيرها، فاحتلت الاسكندرية دون مقاومة بعد ان سلمها الحاكم التركي «امين اغا» للانكليز مقابل مبلغ من المال، واتجهت القوات الانكليزية الى الرشيد فهب المصريون، وانتصروا على المعتدين وردوهم على اعقابهم، واسروا اعداداً كبيرة منهم، فاضطر الانجليز الى طلب الصلح من محمد علي، وبعد مفاوضات انسحبت القواتٌ البريطانية.

التف الشعب المصري حول محمد علي، إلا أنه بدأ يتخلص من الزعماء المصريين، فبث الوقيعة بين العلماء، واغرى بعضهم بالمال[٢] وفرض الاقامة على شيخ الازهر عبد الله الشرقاوي، ونفى عمر مكرم الى دمياط.

محمد علي وبناء الدولة الحديثة

أراد محمد علي ان تكون مصر دولة قوية مستقلة[٣]،بل أراد أن تكون مصر نواة دولة عربية قوية تضم جميع البلاد التي يتحدث اهلها باللغة العربية[٤] لذلك حاول اعادة بناء مصر وفق أسس وتنظيمات حديثة، تواكب التطور الذي كان سائداً في الدول الاوروبية، فقام بالاصلاحات التالية:

١ - الادارة

اعاد محمد علي تنظيم الادارة، فقسم البلاد الى مديريات تتفرع الى مراكز، وانشأ عدة دواوين على كل راس كل منها ناظر، واوجد المجالس لبحث شؤون الدولة.

واعتمد محمد علي على اليهود والنصارى والاقباط في المناصب العليا في بداية حكمه، ولكنه تخلص منهم فيما بعد، وانهى الدور المالي للاقليات الدينية في مصر بعد تحكم دام عدة قرون.

---

(١) عمر عبد العزيز عمر، دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ص١٦٦

(٢) جلال يحيى، العالم العربي الحديث، ٨٧.

(٣) عبد الكريم غرايبه، تاريخ العرب الحديث، ص٧٥

(٤) جورج انطونيوس، يقظة العرب، ص٩٣

ادخل محمد علي عنصراً من الشورى، فشكل عدداً من المجالس والدواوين لدراسة المشاريع قبل عرضها عليه ومنها الديوان العالي، ويجتمع رؤساء هذه المجالس على شكل مجلس شورى الدولة.

ب ـ الجيش

أدرك محمد علي انه لا بد له من جيش قوي يحقق اهدافه، ويحمي حدود دولته، ويضمن الاستقلال، وينجز الطموحات التي يتطلع اليها.

بدأ عمله بالحد من سلطة الجنود الالبانيين، والفتك بالمتمردين منهم، وتشتيت الباقي في مراكز وحصون متناثرة في البلاد، ثم اخذ يعيد تنظيم الجيش، فاستعان باحد الضباط الفرنسيين الذين اسلموا، الكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنسي) وقد بقي في مصر بعد انسحاب الحملة الفرنسية، فعينه محمد علي في الجيش المصري سنة ١٨١٩، ثم كلفه بتكوين جيش مصري حديث.

جند محمد علي السودانيين من اهالي كردفان وسنار في جيشه، ولكنهم لم يحققوا آماله لقلة عددهم، فاستخدم المصريين لزيادة عدد الجيش. واوفد البعثات العسكرية الى اوروبا لاقتباس الفنون العسكرية الحديثة، كما استقدم عدداً من المدربين لتدريب الجيش على مختلف انواع الأسلحة، وانشأ المدارس العسكرية، كمدرسة المشاه، والفرسان، والمدفعية، واركان الحرب.

اتجه محمد علي الى انشاء اسطول قوي كبير، فاشترى السفن الحربية من الخارج، كما بنى سفنا اخرى في الداخل، وأسس ترسانة (دار صناعة) بحرية على ساحل بولاق، وكانت اجزاء السفن تنقل براً الى السويس ثم تجمع هناك، وانشأ دار للصناعة البحرية بالاسكندرية، واشاد مدرسة لتخريج الضباط البحريين.

واقام عدة صناعات حربية لانتاج الاسلحة من ذخيرة ومدافع بالاضافة الى الصناعات الاخرى التي الحقت بالترسانة كصناعة البوصلات، وسكب الحديد، والنظارات، والالبسة والمخازن الأخرى.

جـ ـ التعليم:

اهتم محمد علي بالتعليم، فقد فتحت الحملة الفرنسية العيون تجاه العلم، واحتاج الجيش الى الوان من الثقافات المدنية والعسكرية، فانشأ محمد علي المدارس لتخريج المثقفين للعمل في الدواوين، وشؤون الدولة، وحاجات الجيش.

وارسل محمد علي البعثات الى فرنسا، فكانت اول بعثة تتكون من اربعين شاباً وذلك سنة ١٨١٣، وتزايد المبعوثون فيما بعد وعندما عاد المبعوثون أحلهم محمد علي محل الأجانب الذين كانوا يشغلون مناصب عليا في الدولة، وقد نجح المبعوثون في مهمتهم .. ومن المبعوثين اللامعين علي مبارك، ورافع الطهطاوي.

وأنشأ محمد علي مجموعة من المدارس العليا مثل مدرسة الطب، ومدرسة الهندسة، ومدرسة الصيدلة، ومدرسة الزراعة ومدرسة الالسن، والمدارس الحربية المختلفة. كما انشأ عدداً من المدارس الابتدائية والثانوية، واعتنى بالأزهر، فقد وجده معينا يستمد منه حاجاته من الطلاب لتغذية المدارس العليا، وليكونوا اعضاء بعثات.

وأسس المطبعة الاميرية سنة ١٨٢٨ واصدر اول صحيفة رسمية في اللغة العربية «الوقائع المصرية، وكذلك باللغة الفرنسية كما اخذت المطبعة تطبع لوائح الحكومة والكتب في مختلف الفروع كالطب والرياضيات والفقه.

د ـ الاقتصاد

عندما قضى محمد علي على المماليك حل محلهم في السيطرة على الأرض التي كانت خاضعة لهم، والغى الاوقاف، وملتزمي الارض، فاصبحت كل الارض الزراعية مملوكة للدولة، تستغلها لحساب المصلحة العامة، واصبحت العلاقة مباشرة بين الحكومة والفلاحين، واستثنى محمد علي بعض الأراضي من ملكية الدولة، كالاقطاعات الواسعة التي منحها لافراد اسرته (الجفالك)، والأراضي التي منحها لكبار الموظفين ورجال الجيش (الابعاديات)[١].

اتم محمد علي عدة اصلاحات زراعية، فنظم الري، واقام القناطر الخيرية على راس الدلتا لتنظيم توزيع المياه على فرعي النيل دمياط والرشيد، وانشأ الترعة المحمودية بالبحيرة (ونسبت الى السلطان محمود)، والترعة المنصورية بالدقهلية، ومجموعة من القناطر والترع والجسور، فزادت الأراضي الزراعية، ونشأت بعض المدن كمدينة الزقازيق التي نشأت بمناسبة انشاء قناطر بحر مويس.

وادخل زراعة القطن والدخان، واشجار الزيتون والقنب، والنيلة وقصب السكر.

واحتكر الزراعة، والغى نظام الالتزام، واعاد تنظيم الضرائب.

---

(١) احمد الشلبي، موسوعة التاريخ الاسلامي، ص٥/٣٦٥.

وفي المجال الصناعي ادخل محمد علي مجموعة من الصناعات الهامة مثل صناعة الغزل والنسيج وسكب الحديد، والسكر والورق والزجاج والصابون بالاضافة الى مصانع الاسلحة، واحتكرت الدولة صناعات الحرير والكتان والخيش والحصر.

وقد انتعشت التجارة انتعاشاً كبيراً لتطور الزراعة والصناعة، فازدادت صادرات البلاد، وقد ساعد على ذلك كثرة الطرق التي مهدها محمد علي، ولا سيما الطرق البرية، بالاضافة الى اصلاح الموانىء ولا سيما ميناء الاسكندرية واقامة اسطول تجاري، وتأسيس شركة مصر للملاحة.

احتكرت الدولة اكثر تجارة الصادرات، وبخاصة تجارة القطن والبن والنيلة.

حروب محمد علي

خاض محمد علي عدداً من الحروب لتحقيق طموحاته الواسعة، وليظهر ولاءه للباب العالي، وقد حققت مصر في هذه الحروب استقلالها ووحدتها الوطنية وشخصيتها الدولية، وزودت الشعب المصري بذكريات تاريخية كانت مصدر فخر له، كما دربت الفلاح المصري على تحمل الصعاب وحمل السلاح، ولكنها كبدت مصر خسائر في الأرواح والأموال.

مذبحة المماليك

شعر محمد علي ان المماليك يشكلون خطراً على مكانته في مصر، فاخذ يحيك الدسائس للتخلص منهم، ليطمئن، وليأمن من المحاولات التي يمكن ان تكون مصدر خطر منهم، فاغتنم فرصة اعداد الجيش للسفر الى الجزيرة العربية، فدعا الأعيان وزعماء ومشايخ مصر، ومن بينهم المماليك لتوديع الجيش، واحتشد الناس في القلعة، ورحب بهم محمد علي، ثم بدأت الجموع تتحرك، وعندما وصل موكب المماليك الى مضيق يصعب الحركة فيه[1] انهالت عليهم النار من كل جانب وعملت السيوف عملها، ولم ينج منهم الا القليل، ثم صدرت التعليمات بالقضاء على من تبقى منهم، ومن لم يحضر الاحتفال، فكان ذلك نهاية العهد بالمماليك وزوال خطرهم.

---

(١) احمد الشلبي، مرجع سابق، ٥/ ٤٠٠

١ ـ الحملة على الجزيرة العربية

ظهر الشيخ محمد عبد الوهاب بفكر اصلاحي رائع في الجزيرة العربية سنة ١٦٩٦، ودعا الى هدم المزارات والقباب، ومحاربة التدخين والموسيقى، وعدم التوسل بالاولياء والانبياء، ولاقت هذه الدعوة قبولا في نجد، فايدها امير نجد محمد بن سعود، فاحتل مكة والمدينة سنة ١٨٠٣، وهدم القباب فيها وصار خطراً على نفوذ الدولة العثمانية، فطلب العثمانيون من محمد علي القضاء على الدعوة، فانتهز محمد علي هذه الفرصة ليعيد صلة مصر بالحجاز ثم ليتخلص من الجنود الالبانيين الذين كانوا يثيرون المتاعب له، ويتمردون من حين لآخر.

أعد محمد علي حملة بقيادة ابنه طوسون، ولما تعثر هذا في الانتصار، لحق محمد علي بابنه، وحقق بعض النصر، وعقد طوسون الصلح مع السعوديين ولكنه مات عقب عودته الى مصر، ونقض السعوديون الصلح،فارسل محمد علي ابنه ابراهيم باشا،فدمر الدرعية عاصمة السعوديين سنة ١٨١٨، واسر اميرهم عبد بن سعود، فارسله ابراهيم الى استانبول ليعدم هناك، واصبحت معظم الجزيرة جزءاً من دولة محمد علي، الا ان نفوس السكان بقيت عامرة بافكار الدعوة الوهابية.

٢ ـ حرب السودان سنة ١٨٢٠

حرص محمد علي على ربط السودان بمصر، لما لهما من روابط على مر التاريخ، ذلك ان حوض النيل يكون وحده واحدة، سواء من الناحية الجغرافية او البشرية، وحرصاً على استمرار هذه الروابط، وضمان استمرار تدفق مياه النيل الى مصر لاستخدامها في ري المزروعات، ورغبته في القضاء على المماليك الفارين من مصر، واستكمال محاولة القضاء على من بقي بجيشه من الجنود الالبانين المشاغبين، واحلال السودانيين في الجيش مكانهم، وللبحث عن الذهب في السودان واستغلال موارده، لذلك كله ارسل حملة الى السودان سنة ١٨٢٠ بقيادة ابنه اسماعيل.

حقق محمد علي مجموعة من الانتصارات، ففتح بربر، وشندي وسنار، ورافق الحملة مجموعة من علماء المسلمين، فدعوا الناس الى الاسلام، ثم دعم محمد علي حملة اسماعيل بحملة اخرى يقودها اخوه ابراهيم باشا، فسار محاذيا النيل الأبيض، في حين .

سار اسماعيل محاذيا النيل الازرق، وقد دبر ملك شندي مكيدة لاسماعيل، تمكن بها من حرق اسماعيل[1].

ارسل محمد علي حملة ثالثة بقيادة صهره محمد بك الدقردار تمكنت من تدمير شندى، وتأسيس مدينة الخرطوم سنة ١٨٢٢ عند ملتقى النيلين الأزرق والابيض. واصبحت السودان جزءاً من مصر يحكمها حكمدار يعين محمد علي، كما انتشر الأمن في السودان ودخلت المدنية الحديثة السودان عن طريق مصر.

٣ ـ حرب اليونان

انتشرت افكار الثورة الفرنسية في اوروبا، فقامت ثورة باليونان، ولم يتمكن السلطان محمود الثاني من اخماد الثورة بعد ان اصبحت الدولة العثمانية بدون جيش اثر القضاء على الانكشارية، ولم يجد الباب العالي وسيلة لاخماد الثورة الا محمد علي.

استجاب محمد علي سنة ١٨٢٤ لنداء السلطان بقمع ثورة اليونان، فسار لها ابراهيم باشا، وهزم الثوار، ثم عينه البابا العالي واليا على بلاد المورة وامره باخضاعها، فسار اليها ابراهيم باشا واخضعها بعد جهد كبير، وتضحيات واسعة، ولكن روسيا وانجلترا وفرنسا تحركت لمساعدة اليونان، واستطاعت تدمير الاسطولين البحري المصري والتركي وقتل آلاف من البحارة المصريين والاتراك في معركة ناقارين سنة ١٨٢٧. وانسحبت القوات المصرية من المورة، بعد تهديد الاسطول البريطاني بتدمير الاسكندرية اذا لم ينسحب ابراهيم باشا من اليونان، ويتعهد باعادة الاسرى. لقد ركزت بريطانيا على جر الدول الاوروبية لتدمير الاسطول المصري خوفا من منافسته لاسطولها في البحر المتوسط.

وتعتبر حملة اليونان اول حرب اوروبية خاضها الجيش المصري في التاريخ الحديث، وقد ابدى فيها كفاية كبيرة.

٤ ـ حرب الشام والاناضول سنة ١٨٣١:

حاول محمد علي تعويض الخسارة الكبيرة التي أصابت مصر في حرب اليونان، وتطلع لاحتلال الشام بعد ان رفض الباب العالي منحها له، واتخذ محمد علي أسباباً لدعم تطلعاته، فادعى ان حدود مصر الطبيعية من الشمال هي جبال طورووس الفاصلة بين

---

(١) احمد الشلبي، مرجع سابق، ص٥/٤٠٢.

سوريا والاناضول، وان الاستيلاء على سوريا سيمدها بحاجتها من الفحم والنحاس والأخشاب وبالطاقة البشرية لتعويض خسارتها في اليونان، كما ان سورية كثيرة القلق والاضطراب تحت نير الحكم العثماني، وان والي عكا فتح بلاده للمهاجرين والفارين من وجه العدالة في مصر.

أرسل محمد حملة سنة ١٨٣١ لتأديب والي عكا لرفضه تسليم المصريين الهاربين من الجندية والضرائب، فاحتلت غزة، ويافا، وحيفا دون مقاومة، ثم حاصرت عكا، فاستسلم قائدها سنة ١٨٣٢، ودخل الجيش المصري دمشق، وانتصر في موقعة قرب حمص، ودخل حلب، وانتصر في بيلان، وسقط آلاف الأسرى من الأتراك.

تقدم المصريون الى آسيا الصغرى، فدمروا جيشا يقوده الصدر الأعظم رشيد باشا في موقعة قونية سنة ١٨٣٢، ووقع الصدر الاعظم أسيراً، وسرعان ما طلبت الدولة العثمانية مساعدة روسيا، فتدخلت للمصالحة بين محمد علي وتركيا، وانتهى الامر بمعاهدة كوتاهية سنة ١٨٣٣، واتفق على ضم سوريا وولاية أدرنة الى محمد علي، وان على كريت والحجاز ومصر، على ان يجلو المصريون عن الاناضول[١].

رحب السوريون بالجيش المصري، ذلك ان ابراهيم باشا كان يدعو لاقامة دولة عربية مستقلة عن الحكم العثماني[٢]، ونعم المسيحيون بمساواة كانوا يفتقدونها في ظلم الحكم العثماني، وفتحت ابواب بلاد الشام أمام الارساليات الغربية، وانتشرت المدارس، الا ان ابراهيم باشا فرض الضرائب على السوريين، وجعل التجنيد اجبارياً، فأدى ذلك الى نشر السخط بين الناس، وشجعت بريطانيا الثورة على حكم ابراهيم باشا، ولكن ابراهيم أخمد جميع الثورات.

دفعت بريطانيا ودولة روسيا السلطان العثماني على طرد محمد علي من سوريا ومهاجمة الجيش المصري، وكانت بريطانيا حريصة على إضعاف قوة محمد علي لأنه يعيق اتصالها الى الهند، وبدأت تركيا تضيق من كبوتها، وتستجيب لتحريض الدول الاوروبية، واخذت تشجع الثورات في سوريا، وتدعم السوريين بالمال والسلاح، ودفعت بقواتها لطرد ابراهيم باشا من بلاد الشام، الا ان الجيش المصري انتصر على الجيش التركي في موقعة نصيبين سنة ١٩٣٩.

---

(١) عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي، ص ٢١٧.

(٢) جورج انطونيوس، مرجع سابق ٩٢.

تدخل اوروبا ومعاهدة لندن:

تدخلت اوروبا من جديد، واتفقت دول اوروبا سنة ١٨٤٠ في معاهدة لندن على ان يعيد محمد علي كريت والأماكن المقدسة وادرنة والشام الى السلطان العثماني، وأن تبقى مصر ولاية وراثية له ولأسرته، وان يكون الجزء الجنوبي من الشام ؤعكا له مدى حياته، شريطة ان يدفع للباب العالي، ويظل تابعاً له، الا أنه محمد علي رفض هذه المعاهدة.

وسرعان ما فرضت روسيا والنمسا وبريطانيا على محمد علي سحب قواته من سوريا وكريت، والزمته بقبول معاهدة لندن سنة ١٨٤١، وجاء فيها:

- منح محمد علي ولاية مصر وراثية له ولاسرته من بعده.
- تدفع مصر ضريبة سنوية مقدارها ٤٠٠ الف جنيه كجزية للباب العالي.
- يحدد الجيش المصري بثمانية عشر ألف جندي، ويمنع محمد علي من انشاء اسطول الا بعد موافقة السلطان.
- تضم السودان الى مصر.
- يطبق القانون العثماني على مصر والسودان على اعتبار أنها ولاية عثمانية.

نهاية محمد علي:

أصبح محمد علي مجرد والي على مصر، وأصبح جيشه شطراً من القوات العثمانية، وقد حاول اقامة دولة في البلاد العربية إلا أن بريطانيا وقفت في سبيل إقامة امبراطورية عربية حرصاً على المحافظة على الطريق التجاري الى الهند، واملا في احتلال مصر فيما بعد. كما ان فقدان الوعي العربي اضعف من محاولات محمد علي في اقامة دولة عربية في المشرق العربي[١] وتعتبر محاولة محمد علي توحيد الحجاز ونجد والسودان وسوريا ومصر في دولة واحدة تجربة فريدة، وسابقة تاريخية مفيدة من أجل توحيد أبناء الوطن العربي في دولة واحدة في المستقبل.

تضاربت آراء المؤرخين حول دور محمد علي في التاريخ الحديث، ففي حين يعتبره البعض انه حاول تسخير امكانات مصر لمصلحته الشخصية، وانه فشل في دوره لأنه حاكم متسلط.

ويعتبر بعض الباحثين ان محمد علي هو مؤسس مصر الحديثة الذي بنى جيشها الوطني، وحرر ارادتها من التبعية التركية، وأنشأ صناعتها، وشيد معاهد العلم

والتكنولوجيا فيها، ونظم زراعتها، وجعل منها أقوى دولة في الشرق الأوسط، وبنى كثيراً من جسورها الحضارية مع أوروبا.

والخلاصة ان محمد علي فشل في اقامة دولة عربية لأن العرب لم يكونوا من الوعي للاستعادة في إقامة وحدة العربية في الوقت الذي وقفت بريطانيا بكل قوتها لمنع محمد علي من إقامة دولة قوية خوفاً على مصالحها في المشرق العربي.

خلفاء محمد علي:

أ - ابراهيم باشا:

اعتلت صحة محمد علي واعتزل الحكم سنة ١٨٤٨، فتولى ابنه ابراهيم باشا الحكم، وكان ابراهيم جزءاً من حياة أبيه، فقاد معظم الحملات والحروب التي خاضها محمد علي، على ان فترة حكمه كانت قصيرة، ولم تطل الا بضعة أشهر، اذ توفي سنة ١٨٤٨.

ب - عباس بن طوسون بن محمد علي:

تولى الحكم سنة ١٨٤٨، وكان يرى انه ليس من مصلحة الحاكم نشر التعليم فاقفل المدارس، والمصانع، وقضى على كل معالم النهضة، وتودد الى الدولة العثمانية، وساعدها في حروبها المختلفة، وقد قتل في قصره سنة ١٨٥٤[1].

ج - سعيد باشا:

استمر حكمه عشر سنوات ١٨٥٤ - ١٨٦٤ أجرى خلالها بعض الاصلاحات، فقد اباح للمصريين تملك الأراضي، وقبولهم في الوظائف الكبرى، وأتم خط سكة الحديد بين الاسكندرية والقاهرة الذي بدأه عباس، وجند ابناء المشايخ والعمد بعد ان كان التجنيد مقصوراً على أبناء الفلاحين.

وقد أخطأ سعيد باشا عندما أرسل حملة عسكرية لمساعدة فرنسا في حربها بالمكسيك لصداقته مع نابليون الثالث، ولكثرة ما منح الامتيازات للأجانب، فمنح امتياز شق قناة السويس بشروط مجحفة لمصر، وبدأ الاستدانة.

---

(١) احمد الشلبي، مرجع سابق، ٥/٤١١.

د ـ الخديوي اسماعيل:

حكم مصر حوالي ست عشر سنة ١٨٦٣ ـ ١٨٧٩، وقد تباينت اعماله فقد وسع دولته بحيث ضمت مصر والسودان وأعالي النيل، كما نظم الجيش، وفتح المدارس فبلغت ٤٨١٧ مدرسة، وخلص مصر من مساوىء التشريع القنصلي، وهكذا نجد ان الخديوي اسماعيل عمل على تحقيق هدفين:

أ ـ تحرير مصر من الاغلال التي كان ينوء بها استقلال البلاد، فأعاد النظر في الامتيازات التي كان سعيد قد منحها لشركة قناة السويس.

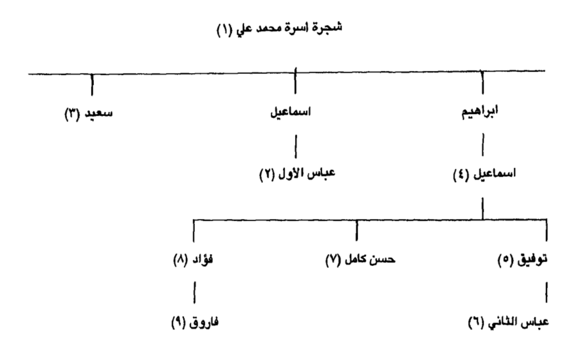
ب ـ رفع اسم مصر بين الدول باشتراكها في كثير من وجوه النشاط الدولي، كالاشتراك في حركة تحرير الرقيق، واقامة قسم خاص بمصر في معرض عالمي عقد بباريس سنة ١٨٦٧، واشتراك مصر سنة ١٨٧٤ مع الدول المؤسسة لمؤتمر البريد الدولي، وألغى نظام السخرة في مصر.

وقد نجح اسماعيل في تنظيم الجيش، وتوسيع حدود الدولة، ففتح هرر سنة ١٨٧٥، والصومال، وضم اقليم البحيرات سنة ١٨٧٦، ولكن بعض الضباط الامريكيين العاملين في الجيش المصري خانوا مصر وكانوا ينقلون اسرار الجيش المصري الى الحبشة بواسطة المبشرين الفرنسيين.

أنشأ اسماعيل دار الكتب واودعها مخطوطات نفيسة، وعنى بالآثار المصرية، وأصلح القضاء، وأوجد مجلس الشورى.

لقد أدت هذه الاصلاحات العديدة الى استدانة مصر القروض العديدة، كما زاد هذه الديون القصور التي بناها، والحفلات التي أقامها، والهدايا التي وزعها ومحاولته التشبه بحكام اوروبا. وتدخلت الدول الأوروبية في شؤون مصر الداخلية وفرضت مراقبة على مصر عن طريق اللجنة الثنائية البريطانية الفرنسية.

شجرة اسرة محمد علي (١)



الفصل الثالث

الاطماع الاوروبية في الوطن العربي

خلال القرن التاسع عشر/ حتى الحرب العالمية الاولى

- الاستعمار الفرنسي في افريقيا العربية
  - مصر
  - اقطار المغرب العربي
- الاستعمار البريطاني في
  - مصر
  - السودان
  - سواحل الجزيرة العربية
- الاستعمار الايطالي في ليبيا
- الاستعمار الاسباني في الريف المراكشي

الزحف الاستعماري على الوطن العربي

مفهوم الاستعمار:

عرف الاستعمار منذ القدم، إلا ان الاستعمار الاوروبي الحديث أصبح استعباداً كاملاً، واستغلالاً شاملاً تسخر فيه موارد المُستعمرة وجهود سكانها لصالح الامبرياليين، ويقصد بالاستعمار تسلط دولة على بلاد غير بلادها الأصلية من أجل استغلال ثروة هذه البلاد الاقتصادية، وقد عرفه محمد عوض محمد بأنه[1]، العمل او مجموعة الأعمال التي من شأنها السيطرة أو بسط النفوذ بواسطة دولة أو جماعة منظمة من الناس، على مساحة من الأرض لم تكن تابعة لهم، أو على سكان تلك الأرض، أو على الأرض والسكان في آن واحد.

ولا ينجح الاستعمار في تحقيق أهدافه إلا إذا كانت المستعمرة ضعيفة، والشعب مفرق الكلمة كما حدث في الوطن العربي.

بدأ الاستعمار الاوروبي في القرن الخامس عشر بالاستيلاء على الحصون، والمراكز التجارية في افريقيا لأسر السكان السود وبيعهم كارقاء في اوروبا، كما اتجه الأوروبيون الى الهجرة الى امريكا وابادة سكانها، ونقل الزنوج الافريقيين اليها للعمل في مزارع الأوروبيين التي اغتصبوها من أصحابها الأصليين.

وقد أدعى المستعمرون الأوروبيون انهم رسل حضارة، وانهم يحرصون على مساعدة الشعوب المُستعمَرة واستخدموا أسماء مضللة لاستعمارهم كالوصاية والانتداب، كما لجأوا الى الاحتلال العسكري المباشر لفرض سيادتهم على الشعوب المغلوبة.

دوافع الاستعمار:

تعددت أهداف ودوافع المستعمرين في السيطرة على الاقطار الأخرى، فشملت النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية، وكذلك التنافس الاستعماري وحب الدول الاستعمارية التوسع في آسيا وافريقيا وامريكا لضعف سكانها.

---

(١) محمد عوض محمد، الاستعمار والمذاهب الاستعمارية، ص ٤٧.

لقد كان موقع الوطن العربي المتوسط بين قارات العالم القديم عاملاً هاماً في محاولات الدول الاستعمارية السيطرة على هذا الموقع، فقد حاول نابليون السيطرة على مصر والشرق لوقوعها على الطرق التجارية الى الهند، كما تتلاقى فيه طرق المواصلات البرية والبحرية بين الشرق والغرب.

وبعد الثورة الصناعية انتشرت حركة التصنيع بشكل اوسع في أوروبا، وازداد الانتاج وأدى ذلك الى قيام تنافس شديد بين دول اوروبا لمد سيطرتها على مناطق جديدة تؤمن لها المواد الخام لهذه الصناعة، وتجعل منها سوقاً لصناعتها، ومكاناً لاستثمار أموالها، وزاد الطمع بالوطن العربي وفرة الثروات المعدنية وبخاصة ثروة البترول الهائلة، وقد حرصت الدول الاستعمارية بالبحث عن أراض جديدة لحل مشكلة الفائض السكاني في البلاد كما فعلت فرنسا عند احتلالها الجزائر، اذ هجرت عدداً كبيراً من الفرنسيين ووطنتهم الأراضي الجزائرية.

لقد تولد شعور القوة وحب السيطرة عند الدول الأوروبية بعد نجاح الحركات القومية في اوروبا في نهاية القرن الماضي، فاحتلت كثير من الدول العربية بحجة ترقية السكان والأخذ بيدهم، كما دعمت هذه الدول حركات التبشير ونشر الدين المسيحي بين السكان العرب لزيادة قبضتها على الوطن العربي، وبث روح التفرقة بين السكان.

وهكذا أدت الاسباب السابقة الى طمع الدول الأوروبية في الوطن العربي، وأخذت تسيطر تدريجياً عليه بحيث لم تنته الحرب الأولى إلا وكانت قد سيطرت على جميع أقطار الوطن العربي باستثناء اليمن والحجاز ونجد، أما الدول التي سيطرت على الوطن العربي فهي بريطانيا، وفرنسا، وايطاليا ثم اسبانيا.

تنوع الاستعمار في الوطن العربي، فبعد احتلال فرنسا للجزائر اعتبرتها جزءاً من الأراضي الفرنسية، واعتبرتها مستعمرة، في حين فرضت الدول الاستعمارية الحماية على تونس ومصر، وأقرت عصبة الأمم وصاية بريطانيا على الاردن والعراق، وانتدبت فرنسا على سوريا ولبنان، وهكذا اتخذ الاستعمار الأوروبي اسماء مختلفة في الوطن مثل الحماية والوصاية والانتداب والمستعمرة ومناطق النفوذ.

أشكال الاستعمار:

يمكننا ان نميز صوراً وأشكالاً متعددة للاستعمار الاوروبي يمكن إجمالها بما يلي:

• **الامتيازات الاجنبية:**

مر معنا ان الامتيازات الاجنبية هي تسهيلات منحتها الدولة العثمانية للدول الأوروبية تشجيعاً لرعاياهم على الاقامة والتجارة في الولايات التي تسيطر عليها، واستغلال أموالهم في المجالات الاقتصادية، كما منحتهم حق فض المنازعات بين الاجانب بمحاكمهم الخاصة، وقد تركزت الامتيازات في بلاد الشام ومصر وتونس فكانت هذه الامتيازات وسيلة للتدخل الأوروبي في شؤون مصر وتونس الداخلية، وبالتالي احتلالهما.

• **الغزو العسكري:**

تعرضت البلاد العربية للغزو الاوروبي العسكري، فقد احتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣١، وتونس عام ١٨٨١، ومراكش ١٩١٢، كما احتلت بريطانيا مصر عام ١٨٨١،وإيطاليا ليبيا سنة١٩١٢، ويعتبر الاحتلال العسكري أبغض أشكال الاستعمار المعروفة، لذلك يسعى المواطنون الى مقاومة المحتل بكل الوسائل والسبل حتى يكتب لهم النصر. لذلك بدأ المستعمرون يستعيضون عن أسلوب الاحتلال العسكري الى أساليب مقنعة، تحض تخفي استعمارهم.

• **السيطرة الاقتصادية:**

اتجهت الدول الاستعمارية الى السيطرة على اقتصاد البلاد الضعيفة بدلاً من الاحتلال العسكري، فقد سيطرت شركات البترول الانكليزية والامريكية الاحتكارية على إنتاج البترول في الوطن العربي، واحتكرت تصنيعه ونقله وتحديد أسعاره، ولم تتورع عن التدخل في شؤون البلاد العربية الداخلية، كما تحكمت بريطانيا في قناة السويس ردحاً من الزمن، وكان ذلك سبيلاً لسيطرتها على شؤون مصر الداخلية والخارجية.

• **الغزو الثقافي:**

اعتمدت البلدان الاستعمارية على فتح المدارس والمعاهد والكليات والبعثات التبشيرية لافتراس الوطن العربي والسيطرة عليه، وقد استعملت فرنسا هذه السياسة في سوريا ولبنان قبل الانتداب، ففتحت المدارس مثل دي لي سال، كما عملت على فرنسة بلاد الغرب العربي بمحاولة القضاء على اللغة العربية والدين والثقافة، وكان للارساليات التبشيرية أثر في بث التفرقة الطائفية في الوطن العربي.

الاستعمار الفرنسي

تطلعت فرنسا الى الاستيلاء على اجزاء من الوطن العربي منذ الحروب الصليبية، وقد عاودت محاولتها السيطرة على مصر والشام عندما وصلت حملة نابليون الى مصر سنة ١٧٩٨، ولكنها فشلت.

وفي عام ١٨٣٠ اتجه الفرنسيون للاستفادة من ثروات الجزائر، وادعت أن داي الجزائر قد أهان السفير الفرنسي عندما طولب بتسديد ثمن القمح الذي اشترته فرنسا من الجزائر، فجاءت القوات الفرنسية وقصفت الجزائر، واحتلتها، ثم أخذت تتوغل في الأراضي الجزائرية الى ان احتلتها بعد مقاومة دامت خمسة عشر عاماً.

ووجهت فرنسا انظارها الى احتلال تونس، فأخذت تتدخل في شؤونها الداخلية، وتخلق الفوضى بها، وتستميل بعض الأنصار لها، ثم ادعت ان احدى القبائل العربية .هاجمت حدود الجزائر، فأرسلت قواتها عام ١٨٨١ لتأديب هذه القبيلة، فاحتلت تونس، وفرضت على باي تونس توقيع معاهدة الحماية سنة ١٨٨٢ وبهذا بسطت نفوذها على البلاد.

وفي أوائل القرن العشرين أخذت فرنساً تحاول خلق الاضطرابات الداخلية في مراكش حتى تجد سبباً لاحتلالها، وفي عام ١٩٠٧ احتل الفرنسيون مدينة الدار البيضاء، ثم زحف الجيش الفرنسي سنة ١٩١١ واحتل الاجزاء الداخلية من البلاد، وفرض الفرنسيون الحماية على السلطان سنة ١٩١٢، وجردوه من سلطاته، وعينوا حاكماً فرنسياً خول الاشراف على البلاد، وفي الوقت الذي احتلت فرنسا مراكش، تقدمت القوات الاسبانية واحتلت الريف المراكشي، فاتفقت الدول الاوروبية على تقسيم مراكش الى ثلاث مناطق هي:

- منطقة طنجة وتكون دولية.
- منطقة الريف وتخضع لاسبانيا.
- بقية بلاد مراكش وتخضع لفرنسا.

وعندما نشبت الحرب الأولى تحققت اطماع فرنسا في احتلال سوريا ولبنان، فعقدت الحكومة الفرنسية معاهدة سايكس/ بيكو مع بريطانيا سنة ١٩١٦ لتقسيم أراضي بلاد الشام والعراق كما مر معنا، ثم تبعتها اتفاقية سان ريمو، وبعد الحرب الأولى شكل الأمير فيصل حكومة وطنية في سوريا، إلا أن القوات الفرنسية غزت سوريا سنة

١٩٢٠، واحتلتها اثر معركة ميسلون التي استشهد فيها يوسف العظمة قائد الجيش العربي.

سياسة فرنسا الاستعمارية:

اتبعت فرنسا سياسة استعمارية تشابه الى حد كبير سياسة بريطانيا الاستعمارية، فقد انتهجت أسلوب التسلط والعنف والقضاء على كل مقاومة بشدة، وسلب الشعوب حريتها، وضم بعض الأقطار الى فرنسا كما فعلت بالجزائر حيث حاولت جعلها مقاطعة فرنسية، فصادرت الأراضي الخصبة ووطنت فيها الفرنسيين، كما اقتطعت لواء الاسكندرونة من سورية وضمته الى تركيا، وركزت على التجزئة الاقليمية، فقسمت سوريا الى عدد من الدويلات بعد أن فصلتها عن لبنان.

وفي المجال الاقتصادي، صادرت فرنسا الأراضي الخصبة ووزعتها على المهاجرين الفرنسيين، كما فعلت في المغرب العربي، واستثمرت الموارد الطبيعية لحسابها، وشجعت رؤوس الأموال الفرنسية على غزو البلاد، وجعلت الاقتصاد يسير في نطاق اقتصاد فرنسا، واحتكرت التجارة والصناعة.

وفي الميدان الاجتماعي نشرت فرنسا الفقر والجهل والمرض بين السكان العرب، كما نشرت العادات السيئة من شرب للخمر، واستخفاف بالقيم والتقاليد العربية الاسلامية.

أما في الناحية التعليمية فقد فتحت المدارس التبشيرية في سوريا ولبنان والمغرب العربي، وحاربت المدارس الوطنية والدين الاسلامي واللغة العربية والتراث الاسلامي العربي، وشجعت الثقافة الفرنسية، وحصرت التعليم في نطاق ضيق جداً، فانتشر الجهل، وخيمت الأمية على سواد الشعب.

الحملة الفرنسية على مصر والشام

ظلت مصر ولاية عثمانية منذ افتتحها السلطان سليم الأول العثماني عام ١٥١٧، إلا أن سلطة الوالي العثماني أخذت تضعف قليلاً قليلاً، في الوقت الذي أخذ المماليك يستعيدون سلطتهم على شؤون مصر، وأصبح المماليك يعزلون الوالي الذي لا يرضون عنه، وغدا رئيسهم (يلقب شيخ البلد) صاحب الكلمة العليا، وفي الوقت الذي بدأ غزو نابليون لمصر سنة ١٧٩٨ كان يتنازع حكم مصر المملوكان ابراهيم بك ومراد بك.

أسباب الحملة:

تعتبر حملة نابليون على مصر حلقة من حلقات الصراع الذي عم ارجاء القارة الأوروبية في اعقاب الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩، ذلك ان ملوك اوروبا حاولوا القضاء على الثورة في مهدها، ومنع انتشار أفكارها التحررية، إلا أن حماس الجنود الفرنسيين في الدفاع عن بلادهم، وثورتهم، وعبقرية نابليون العسكرية مكنت فرنسا من هزيمة النمسا واجتياح ايطاليا.. والانتقام من بريطانيا لانتزاعها بعض المستعمرات الفرنسية في حرب السنين السبع.

لذلك لم يكن مشروع الحملة الفرنسية وليد تفكير مفاجىء، بل كانت فرنسا تدرس امكانية غزو مصر منذ سنة ١٧٨٣، حين اقترح القنصل الفرنسي في مصر ميور احتلال مصر لتكون مكاناً لاستيطان الزائد من الفرنسيين وسوقاً لمنتجات فرنسا[١]، وكان يبرز ذلك بما يلي:

- الانتقام من المماليك لاعتدائهم على التجار الفرنسيين في مصر على حد قوله، وارهاقهم بالمطالب المالية، ومصادرة اموالهم ومتاجرهم، والاعتداء على ارواحهم.
- تحالف بكوات المماليك في مصر مع بريطانيا.
- كما طالب القنصل الفرنسي مجالون في مصر حكومته سنة ١٧٩٥ باحتلال مصر، لسهولة احتلال مصر لعدم وجود تحصينات عسكرية كافية، ولضعف تسليح المماليك، فقال. إذا كانت الجمهورية تريد رعاية التجارة الفرنسية وترغب في ان تفيد منها الى اقصى حدود الافادة، فلا بد لها من الاستيلاء على القطر المصري... واني أكرر بأننا متى أصبحنا أسياد البحر الأحمر فلا يطول بنا الوقت حتى نفرض إرادتنا على البريطانيين ونطردهم من الهند،... ومن السويس نستطيع ان ننقل على عدد من السفن عدد أضخم من الجنود الى الهند في مدة لا تتجاوز ٦٠ يوماً بدلا من الستة اشهر التي تقضيها عملية النقل هذه عن طريق رأس الرجاء الصالح».
- فكرت فرنسا بغزو الأراضي البريطانية، ولكن قادة فرنسا العسكريين ادركوا صعوبة ذلك، وقد اغرى موقع مصر الهام على طريق الهند حكومة فرنسا على غزوها، وبخاصة ان الفرنسيين كانوا يرغبون في فتح مستعمرات جديدة لهم تعويضا عما خسروه من مستعمرات في امريكا والهند في مؤتمر صلح باريس سنة ١٧٩٣ مع بريطانيا،

(١) عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي، ٢٣٠.

فكان تفكيرهم فتح مصر لتكون نواة لامبراطورية فرنسية جديدة في الشرق[1]، كما ان احتلال مصر يقطع طريق التجارة بين بريطانيا ومستعمرتها الهند، وفي هذا انتقام من بريطانيا، وقد أكد ذلك نابليون في خطابه لجنوده عشية بدء الحملة. ان الحملة ستكون ضربة تذهل بريطانيا في أكثر النقط حساسية بالنسبة لها[2]، وكان على نابليون ان يقضي على مصالح بريطانيا، وشق قناة بين البحرين المتوسط والأحمر إن أمكن، لتحويل التجارة الى برزخ السويس بدلا من طريق رأس الرجاء الصالح الطويلة التي تسيطر عليها بريطانية، وفقاً لاقتراح قنصل فرنسا في مصر.

● وكان نابليون متحمساً لغزو مصر لاقتناعه استحالة غزو انجلترا في عقر دارها من الناحية العسكرية، وكان يعتقد ان غزو مصر سيضطر الى ارسال القسم الاكبر من اسطولها المرابط في بحر المانش الى سواحل البحر المتوسط والبحر الأحمر وسواحل الهند، فيخلو الجو لفرنسا وتكون حينئذ قادرة على غزو انكلترا، كما كانت بعض الاحلام تراود نابليون في تقليد الاسكندر المقدوني القيام بمغامرة عسكرية تشبع أحلامه باحتلال سوريا ومصر، حيث قال نابليون «سأنفخ روح الثورة في بلدان الشرق التي ارهقتها المظالم، وازحف الى دمشق فحلب، فينضم المظلومون الى جيشي في كل مدينة وقرية أصل اليها ثم أدق باب القسطنطينية، وأطيح بالامبراطورية التركية، وأنشىء في الشرق امبراطورية عظمى جديدة تكون موضع إعجاب الأجيال المقبلة، وتحدد مركزي في التاريخ، وقد أعود الى باريس عن طريق ادرنة وفينا بعد أن أكون قد قضيت على البيت المالك في النمسا.

● ويبدو ان الادارة الفرنسية أرادت إبعاد نابليون عن فرنسا لازدياد حب الجماهير له بعد انتصاره على النمسا، وكان وزير خارجية فرنسا تاليران متحمسا لغزو فرنسا الى مصر واحتلالها، لأنه كان يعتقد ان الدولة العثمانية ستنهار خلال ربع قرن، ومصر أفضل المناطق المناسبة لفرنسا.

سير الحملة:

أعدت فرنسا الحملة بسرية تامة، وكان نابليون يوقع جميع القرارات امعاناً في السرية، وفي ١٩ ايار سنة ١٧٩٨ انطلقت الحملة، وكانت تتكون من حوالي ٣٦ ألف محارب بالاضافة الى ١٤٦ عالما من مشاهير العلماء والمهندسين والفنانين، بالاضافة الى

---

(١) جلال يحيى، تاريخ العرب الحديث، المدخل، ص ٧٧.

(٢) محمد عبد السلام كناق واخرون، المجتمع العربي، ص ٢٨٨.

مطبعتين واحدة عربية وأخرى فرنسية، احتل الفرنسيون مالطة بعد مقاومة بسيطة، ثم اتجهوا الى الاسكندرية مصطحبين معهم بعض العرب كرواد للحملة[1] فاحتلوا الاسكندرية بعد مقاومة باسلة أبداها المصريون بقيادة محمد كريم حاكم الاسكندرية.

تقدم الفرنسيون نحو القاهرة، فتصدى لهم المصريون، في شبر خيت[2] ولكن البسالة لم تجد فتيلاً أمام مدفعية المعتدي، وفي القاهرة وقعت معركة الأهرام واسفرت عن انتصار الفرنسيين، فاضطر المصريون الى الاستسلام.

حاول نابليون كسب ثقة الشعب المصري، ووزع منشوراً بالعربية ادعى فيه انه جاء لتحرير مصر من المماليك الذين استبدوا في البلاد وظلموا أهلها، وادعى انه مسلم، ولبس زي المشايخ، وتردد على المساجد، وكذلك قلده قادته، وشكل ديواناً يجتمع فيه رجالات مصر وشيوخها، لكسب تعاون السكان وتأييدهم في حكمه البلاد المصرية.

معركة أبي قير البحرية:

أرسلت بريطانيا اسطولها لتعقب الفرنسيين بقيادة نلسن، وفي اول آب عام ١٧٩٨ لاح له الاسطول الفرنسي رابضاً في خليج أبي قير، فانقض عليه بحركة بارعة أدت الى تحطيمه، وقتل قائده، ولم ينج الا اربع سفن تشتت في البحر المتوسط، واستولى نلسن على ما تبقى من الاسطول، وبهذا عزل الجيش الفرنسي في مصر، وحرم من كل ما يحتاجه من امدادات ومؤن وذخائر، ومن الاتصال المنتظم مع فرنسا، فتضاءلت آمال نابليون في تحقيق أهداف الحملة.

الانتفاضة المصرية الأولى:

اكتشف المصريون خداع نابليون بالرغم من محاولاته التودد اليهم ومشاركته احتفالاتهم الشعبية والدينية، وتظاهره بحب الاسلام، وازداد سخطهم على الفرنسيين عندما استغل نابليون موارد مصر لتموين جيشه، وفرض الضرائب العالية على السكان، فكثر التذمر، واتجه بعض التجار والصناع المصريين الى مركز القيادة الفرنسية لبث شكواهم، فتجمع الناس، فخاف الحرس، وأطلقوا الرصاص، فانقض المصريون عليهم، وقتلوا بعضهم، واشتعلت الثورة، وقد نظم هذه الانتفاضة العلماء والمشايخ، واتخذوا الأزهر مركز قيادتهم، إلا أن الفرنسيين قصفوا القاهرة بالمدفعية وركزوا على الأزهر،

---

(١) علي حسون، تاريخ الدولة العثمانية، ١١٨.

(٢) عبد العزيز نوار، تاريخ العرب المعاصر، مصر والعراق، ص ٧٥.

فحصدت آلاف الأنفس[1]، وحرقوا القرى، وأعدموا الكثير دون محاكمة، كإعدام محمد كريم حاكم الاسكندرية.

لقد علل المؤرخون اسباب الانتفاضة بما يلي:

- تذمر المصريين لكثرة الضرائب التي فرضها الفرنسيون على العقارات والمهن والعرائض، بالاضافة الى الغرامات المالية الاستثنائية على المدن، ومصادرة املاك نساء المماليك، واغتصاب جميع الأغذية والعلف الزائد[2] لتسديد نفقات القوات الفرنسية.
- شعور المصريين بشخصيتهم الاسلامية، بعد أن قاد العلماء ومشايخ وطلاب الأزهر حركة المقاومة[3]، وكشف زيف الفرنسيين بادعائهم الاسلام، بل كشفوا انهم كانوا اعداء المسلمين، وان حملتهم هذه هي استمرار لمحاولة فرنسا غزو مصر أيام لويس السابع ملك فرنسا سنة ١٢٤٨، والذي سجن في المنصورة بعد ان هزمه المصريون واسروه.
- تسلط الفرنسيين على الدولة وعلى السلطة في البلاد، وعلى مرافق مصر المختلفة، وتجريد السكان من حرياتهم، وشعور المصريين الوطني، وشعورهم بأن بلادهم مغتصبة، وان كرامتهم هدرت، وان الفرنسيين يحتقرون تقاليدهم وقيمهم بشربهم الخمر.
- سوء الاحوال الاقتصادية وركود التجارة بسبب الحصار الذي فرضته بريطانيا على سواحل مصر بعد معركة ابي قير، فاختفت السلع من الاسواق.
- اتخذت قيادة الحملة قراراً بأن يستخرج الحرفيون تراخيص مهنية تجدد سنوياً مقابل الرسوم، كما اتخذت قراراً بتسجيل الأملاك حتى تجمع الرسوم والضرائب.

لم يتحمل المصريون هذه المظالم، فقاموا بانتفاضتهم، ولجأ نابليون الى سياسة الشدة، وأكثر من فرض الغرامات، وألقى القبض على الذين اتهموا بتزعم الثورة، وأعدمهم، كما حكم البلاد حكماً عسكرياً، وقمع الثورة بكل عنف بعد ان استشهد حوالي اربعة آلاف مصري.

---

(١) لوتسكي، تاريخ الاقطار العربية الحديث، ٥٢.
(٢) علي حسون، مرجع سابق، ١٢١.
(٣) جلال يحيى، مرجع سابق، ٨١.

الحملة على سوريا:

حاولت فرنسا خداع الدولة العثمانية باقناعها بأنها لم تقصد من حملتها الا تأديب المماليك، ولكن العثمانيين لم ينخدعوا بذرائع فرنسا، واخذوا يعدون قواتهم لمهاجمة الفرنسيين في مصر، بالتعاون مع الاسطول البريطاني، غير ان نابليون استبق العثمانيين وغزا بلاد الشام سنة ١٨٩٩، فاحتل العريش، وغزة، ويافا، وفي يافا خط نابليون احلك سطور تاريخه العسكري عندما أمر باعدام ٣٠٠٠ جندي تركي استسلموا له بشرط الابقاء على حياتهم[١]، كما قتل ٥٠٠ من جنوده المرضى، ثم واصل زحفه نحو عكا فحاصرها مدة شهرين، ولكنها امتنعت عليه، بسبب مقاومة حاكمها احمد باشا الجزار الباسلة، وشجاعة الأهالي، واستماتة العثمانيين في الدفاع عن عكا، ومناعة اسوارها، ومنع الاسطول البريطاني وصول المدد للفرنسيين بعد استيلائهم على معظم المؤن والذخائر، وبهذا تحطمت آمال نابليون بفتح سوريا والعودة الى فرنسا عبر القسطنطينية واوروبا، وقد قال نابليون: «لقد لازمني سوء الطالع، فلولا الجزار لصرت امبراطوراً على الشرق»[٢]، وازاء هذا الفشل ولانتشار الطاعون والاوبئة بين قواته قام برفع الحصار عن المدينة والعودة الى مصر بعد ان خسر حوالي ٢٢٠٠ رجلا.

عاد نابليون الي مصر ليجد جيشاً عثمانياً قد أنزل عند أبي قير، فشتت شمله، ثم تسلل عائداً الى فرنسا تاركاً الحملة بقيادة نائبه الجنرال كليبر.

مفاوضات جلاء الفرنسيين:

أدرك كليبر انه لا قبل للقوات الفرنسية البقاء في مصر، فآثر الانسحاب، واتصل بالعثمانيين بهدف الوصول الى اتفاق يحقق جلاء القوات الفرنسية عن مصر، وفي عام ١٨٠٠ اتفق الطرفان في اتفاقية العريش على انسحاب الفرنسيين من مصر خلال ثلاثة أشهر على سفن عثمانية، ولكن بريطانيا أصرت على اعتبار الفرنسيين أسرى حرب، وعدم السماح لهم بالجلاء إلا بعد تسليم أسلحتهم، فرفض كليبر ذلك، وهاجم القوات العثمانية المتجهة نحو القاهرة لتسلمها وفق اتفاقية العريش.

انتفاضة القاهرة الثانية:

ازداد عداء المصريين للجيش الفرنسي المحتل، واشتدت مقاومتهم، وقاد عمر مكرم ثورة عارمة ضد الفرنسيين، ووضعوا المتاريس والعوائق في الشوارع لمنع دخول

(١) محمد عبد السلام كفافي وآخرون، مرجع سابق ٢٣٢.
(٢) نفس المرجع، ٢٣٣.

الفرنسيين الى القاهرة، وانشأ الثوار معملاً للبارود، واستخدموا الحديد والنحاس لصب المدافع، وجعلوا من هذه الثورة معركة حياة أو موت، ووضع حد للاحتلال الفرنسي.

قصف الفرنسيون القاهرة مدة اربعين يوماً، فهدمت المساكن وقل الأكل، وأغلقت المخابز والحوانيت[1] [عبد الرحمن الجبرتي] وأخيراً اتفق على وقف الثورة علـى ان تصدر فرنسا عفوا شاملا عن الثوار وأن يغادر الجنود العثمانيون القاهرة.

ولكن كليبر انخدع بهذا الانجاز، واعتقد انه انتصر على الشعب المصري، فعاد ثانية الى فرض الضرائب العالية، فازدادت المقاومة المصرية واخذ المصريون يتخطفون الجنود الفرنسيين كلما سنحت الفرصة لذلك، وقد نجح الطالب الأزهري سليمان الحلبي باغتيال الجنرال كليبر في ١٤ حزيران سنة ١٨٠٠، وخلفه الجنرال مينو في القيادة.

جلاء الحملة الفرنسية عن مصر:

لم يكن (عبد الله مينو)[1] يتمتع بالكفاية العسكرية، ولم يكن محبوباً لدى الجنود الفرنسيين، وكـان من أنصار بقـاء الفرنسيـين في مصر، الا أن اشتدت المقـاومة المصـرية فساءت أحوال الحملة الفرنسية، كما تعاون العثمانيون والانكليـز معاً لطرد القـوات الفرنسية، فأنزل الانجليز قواتهم عند أبي قير وهزموا الجيش الفرنسي بقيادة مينـو، فانسحب الى الاسكندرية وتحصن فيها، ثم وصلت حملة تركية جديدة وتقـدمت نحو القاهرة، فازداد موقف الفرنسيين حرجاً وانحطت معنوياتهم، واضطروا الى الاستسلام سنة ١٨٠١ بشروط اتفاق العريش[2]، وتم جلاء الجيش الفرنسي بكامل اسلحته وعاد الى فرنسا.

نتائج الحملة وتقييمها:

عند تقييم الحملة الفرنسية يجب ان نضع الاعتبارات الرئيسة التالية[3]:

- **انها حملة استعمارية تضع مصالح فرنسا كأساس لما ستقـوم به من أعمـال في البلاد.**
- **ان الشعب المصري كان رافضـاً للحكم الأجنبي أياً كـان هذا الحكم، وأيـاً كان مستوى الحكم.**

---

(١) عبد العزيز نوار، مرجع سابق، ٧٩.
(٢) اسلم الجنرال مينو وتسمى باسم عبد الله مينو.
(٣) جلال يحيى، مرجع سابق، ص ٨٢.

- ان عمر الحملة الفرنسية حوالي ثلاث سنوات، مليئة بالحروب والثورات الداخلية، وكان الصعيد بالذات بعيداً عن متناول يد الفرنسيين لفترة طويلة اذا قيست بعمر الحملة الفرنسية في مصر.
- ان نابليون جاء الى مصر مدعياً بأنه جاء لانقاذ الفلاح المصري من استبداد المماليك به، ورفع الشعب المصري الى مستوى الحكم، والواقع ان هدف فرنسا كان بعيداً عن ذلك، وكان هدفه استعمار مصر.
- ان المؤسسات الاستشارية كالديوان التي انشأها نابليون ليست مؤسسات ديمقراطية، وإنما كان الديوان موجوداً في العهد العثماني، فضلاً عن ان الديوان لم يكن بالانتخابات، وانما كان بالتعيين، وكان رأيه استشارياً ورغم قصر المدة التي قضتها الحملة في مصر الا انها تركت آثاراً مختلفة في مصر والوطن العربي، من أبرزها:

أ ـ **الناحية العسكرية**: فشلت الحملة الفرنسية في السيطرة على الطريق الى الهند، وفي اقامة مستعمرة فرنسية في مصر، وتحطم الاسطول الفرنسي، إلا أن الحملة اظهرت ضعف القوة العسكرية العثمانية والمملوكية ازاء التقدم العسكري الفرنسي، فقضت الحملة على المماليك، واستنزفت قواتهم، مما جعل المصريين ينظمون المقاومة والتصدي للفرنسيين لحماية بلادهم بأنفسهم.

ب ـ **الناحية الاجتماعية**: تغير البنيان الاجتماعي بالقضاء على المماليك، وانتعاش الطبقة الوسطى على حساب طبقة الاقطاعيين[١].

ج ـ **الناحية الاقتصادية**: كانت الحملة وبالاعلى مصر، فقد انشغل الناس في مقاومة الحملة فاهملت الزراعة، واحجم الناس عن استثمار أموالهم في الصناعة، وقلت الصادرات وكسدت التجارة لمحاصرة بريطانيا شواطىء مصر اثناء الحملة، فساءت احوال مصر الاقتصادية، وبخاصة لفداحة الضرائب المفروضة على المصريين، ومصادرة الفرنسيين لانتاجهم. وعندما قلت السلع عاد المزارعون الى ارضهم فوسعوا الزراعة، وانشأوا المصانع لمواجهة نقص السلع في السوق المحلي.

---

(١) حلال يحيى، مرجع سابق، ص ٨٢.

وقد حاول الفرنسيون إصلاح الوضع الاقتصادي السيء الذي خلقوه، فأنشأوا مصنعاً للأقمشة وآخر لصنع البارود، وصنعوا الصابون لسد حاجة جيشهم، كما حاولوا تنشيط التجارة بالاتصال مع دول افريقيا.

د - **الناحية السياسية**: ابرزت الحملة أهمية مصر، ولفتت انتباه الدول الاستعمارية الى هذه المنطقة، وبخاصة بريطانيا التي ركزت انظارها على مصر حتى لا تقع في يد أعدائها، لأهميتها على طريق المواصلات البحرية الى الهند المستعمرة الانجليزية وتقربت الى المماليك والى الدولة العثمانية، ومنذ ذلك الوقت وانجلترا تعمل على منع وقوع مصر في أيدي دولة اوروبية الى ان احتلتها سنة ١٨٨٢.

كما ان الحملة نبهت المصريين والعرب الى المخاطر التي يمكن ان تتعرض لها بلادهم من الاوروبيين المستعمرين، ولذلك لا بد من الاعتماد على انفسهم لدحر اي عدوان.

هـ - **ظهور الشعور القومي**: تكتل الشعب المصري باختلاف طبقاته، فظهر لديهم حب الوطن والدفاع عنه وشعور بمقاومة الفرنسيين، والتطلع الى الاستقلال.

ز - **الناحية العلمية والثقافية**: كانت الحملة سبب اتصال الحضارة العربية في الشرق بالحضارة الأوروبية، اذ رافقها ١٤٦ عالماً فرنسياً في مختلف المواضيع، وما ان استقرت الحملة في مصر حتى بدأ العلماء بدراسة اوضاع مصر، فانشأوا المجمع العلمي لدراسة احوال مصر، ووضعوا كتاباً سمي «وصف مصر» شمل خرائط مفصلة لمصر، ودراسات لحيوانات مصر ونباتاتها ومعادنها والامراض المتوطنة بها كالرمد والجدري، وأوجد الفرنسيون مطبعة عربية واخرى فرنسية، وانشأوا جريدتين عربية وفرنسية، ومكتبة وضعت فيها مجموعة نفيسة من الكتب العربية والغربية. وأقام الفرنسيون مستشفيات عسكرية، والحجر الصحي في القاهرة والاسكندرية، بالاضافة الى تجسيد لفكرة وصل البحر المتوسط بالبحر الاحمر، ونقب الفرنسيون عن آثار مصر، فعثر ضابط فرنسي على حجر الرشيد، مما أدى الى فك رموز الكتابة الهيروغليفية سنة ١٨٢٢، وكشف لغة مصر القديمة على يد شامبليون.

امتدت الآثار العلمية في مصر حتى بعد فشل حملة نابليون حيث أقام محمد علي بارسال البعثات الى المعاهد الفرنسية فيما بعد، وتسربت الثقافة الفرنسية الى مصر والشام، فكانت فرنسا تتذرع بنشر العلم وارسال البعثات التبشيرية لهذه الغاية.

أول منشور أذاعه بونابرت في مصر

بسم الله الرحمن الرحيم لا إله الا الله ولا ولدا له ولا شريك بملكه

من طرف الجمهور الفرنساوي المبني على أساس الحرية. والساري عسكر الكبير بونابرته أمير الجيوش الفرنساوية. وتعرف أهـالي مصر جميعهم. إن من زمان مـديد السناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعـاملون بالذل والاحتقـار في حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع البلص والتعدي. فحضرت الآن ساعـة عقوبتهم وحسـرة من مدت عصـور طويلة هذه الزمـرة المماليـك المجلوبين من جبـال الأبـازا والكرجستان يفسدوا في الاقاليم الأحسن ما يوجد في كرة الارض كلها. فأما رب العالمين القادر على كل شيء، فقد حتم في انقضاء دولتهم، يا ايها المصريون قد يقولوا لكم إنني ما زلت في هذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم. فذلك كذب صريح فـلا تصدقـوه، وقولوا للمفترين إنني ما قدمت إليكم إلا لكيما اخلص حقكم من يد الظالمين. وإنني اكثر من المماليك اعبد الله سبحانه وتعالى، واحترم نبيه محمد والقرآن العظيم، وقولوا لهم ايضا ان جميع الناس متساوين عند الله وان الشيء الذي يفرقكم عن بعضهم بعض فهو العقل والفضايل والعلوم فقط، وبين المماليك مـا العقل والفضـل والمعرفـة التي تميزهم عن الآخرين وتستوجب انهم إن يتملكون وحدهم كلما يحلو به حبوه الدنيا. حيثما يوجد ارض مخصبة فهي مختصة للمماليك، والجواري الجمال والحلل الحسـان والمساكن الاشهى فهذه كلها لهم خاصة. فإن كان الارض المصرية التـزام للمماليـك فيوردون الحجة التي كتبها لهم الله. فلكن رب العالمين هو رؤأفا وعادل على البشر. بعونه تعالى من اليوم وصاعدا لا يستثنى احد من اهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية، وعن اكتساب المراتب العالية، فالعقلا والفضلا والعلما بينهم سيدبروا الامور وبذلك يصلح حال (الامة) كلها. سابقا في الديار المصرية كان المدن العـظيمة والخلجـان الواسعة، والمتجر المتكاثر وما زال ذلك إلا لطمع وظلم المماليك. طوبى ثم الطوبى الى اهالي مصر الذين يتفقوا معنا بلا تأخير، وينصلح حالهم وتعلا مراتبهم. طوبى ايضا للذين يقعدون في مساكنهم غير مبالين من الفريقين المحاربين فإذا يعرفونا بالاكثر يسرعون إلينا بكل قلب، لكن الويل ثم الويل للذين يتحدوا مع المماليك ويساعدوهم في الحرب علينا، فما يجدوا طريق الخلاص ولا يبقى منهم آثار.

المادة الاولى : جميع القرى القريبة ثلاث ساعات عن المـواضع الذي يمـر بها العسكر الفرنساوي ترسل للساري عسكر بعض وكلا لكيما يعرّفوا المشار إليـه انهم اطاعوا ونصبوا السنجق الفرنساوي الذي هو ابيض وكحلي واحمر.

المادة الثانية : كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوي تحرق بالنار.

المادة الثالثة : كل قرية تطيع العسكر الفرنساوي الواجب عليهم نصب السنجق الفرنساوي وايضا نصب سنجق السلطان العثماني محبنا دام بقاه.

المادة الرابعة : المشايخ في كل بلد يختموا حالا جميع الارزاق والبيوت والاملاك متاع المماليك، وعليهم الاجتهاد الزايد لكي لا يضيع ادنى شيء منها.

المادة الخامسة : الواجب على المشايخ والقضاة والأيمة ان يلازموا وضايفهم وعلى كل من اهل البلد ان يبقى في مسكنه مطمأنا. وكذلك تكون الصلوه قايمة في الجوامع على العادة والمصريون بأجمعهم يشكروا فضل الله سبحانه وتعالى لانقراض دولة المماليك قايلين بصوت عالي : ادام الله تعالى إجلال السلطان العثماني، ادام الله تعالى إجلال العسكر الفرنساوي، لعن الله المماليك، واصلح الله حال (الامة) المصرية.

تحريرا في عسكر اسكندرية، في ثلاث عشر من شهر سيدور (تموز) سنة ستة من إضافة الجمهور الفرنساوي اعني اواخر شهر محرم سنة ١٢١٣هـ

من كتاب الفكر العربي الحديث ص ١٧١
رئيف الخوري

الجزائــــر

كان الجزائر جزءا من الامبراطورية العثمانية، وعندما ضعفت الدولة العثمانية في القرن الثامن عشر. اصبحت تخضع للدولة خضوعا اسميا، وقد اطلق على حاكمها لقب الداي، وكان يتمتع بالاستقلال الداخلي، وبسلطات واسعة، فهو حر التصرف في عقد معاهدات الصلح مع الدول الاخرى، ويبرم الاتفاقات الاقتصادية مع الدول، وله حق اعلان الحرب دون استئذان السلطان العثماني، وكانت الجزائر ترتبط بعلاقات ودية مع فرنسا، وتتبادل التمثيل الدبلوماسي معها من سنة ١٥٦١، وكثيرا ما دعمت الجزائـر فرنسا ضد اعدائها، كما صدرت لها القمح على ان يسدد فيما بعد. وعندمـا ضعفت الجزائر تطلعت فرنسا الى احتلالها.

المطامع الفرنسية في الجزائر

كانت للجزائر اهمية خاصة عند فرنسا، فهي تقع على الجانب الاخر من البحر المتوسط، ليس بعيدا عن فرنسا، وهي بلاد شاسعة المساحة قليلة السكان، معتدلة المناخ، خصبة التربة، وفيرة الثروات، يسمح بسكنى الفرنسيين كا ان موقعها الاستراتيجي يهيء للاسطول الفرنسي قواعد نافعة للسيطرة على البحر المتوسط.

وفي القرن التاسع اتجهت فرنسا الى اعادة بناء امبراطورية كبيرة تكون سوقا لمنتجاتها بعد ان فقدت كثيرا من مستعمراتها في حرب السنين السبع مع بريطانية، فتطلعت الى احتلال مصر في اواخر القرن الثامن عشر، ولما فشل نابليون سنة ١٨٠١، راودته فكرة ضم المغرب العربي الى فرنسا، وجعل البحر المتوسط منطقة فرنسية، فارسل ضابطا لرسم خريطة الجزائر ومواقعها العسكرية، الا ان حكم نابليون سقط سنة ١٨١٥، واعيد النظام الملكي بعد مؤتمر فينا الى فرنسا، فعاد الفساد من جديد الى فرنسا، وكذلك الحكم الاستبدادي، والامتيازات للنبلاء، فتململ الشعب الفرنسي، واخذ يستعد للثورة في عهد الملك شارل العاشر، واقترح بعض الحكام الهاء الشعب الفرنسي عن مشاكله الداخلية، بارسال جيش فرنسي الى الجزائر لاحتلالها لكسب ثقة الشعب والبابا.

وقد حدث ان اشترت فرنسا كميات كبيرة من القمح من الجزائر دون ان تدفع ثمنها، ولم تهتم فرنسا بتسديد قيمة القمح عدة سنوات، وعندما سأل الداي حسين قنصل فرنسا في الجزائر عن ثمن القمح، اجابه اجابة غير لائقة، فلطم الداي القنصل بالمذبة على على وجهه.

اعتبرت حكومة فرنسا هذا العمل اهانة لفرنسا، فضربت حصارا على سواحل الجزائر استمر ثلاث سنوات ١٨٢٧ ـ ١٨٣٠ وقد شجعت روسيا الدولة الفرنسية على احتلال الجزائر لغايتيين.

- اضعاف الدولة العثمانية كي تتمكن روسيا من السيطرة على المضائق بين البحر الاسود وبحر أيجه والوصول الى البحار الدافئة.
- اذكاء التنافس والعداء بين فرنسا وانكلترا..

الغزو الفرنسي للجزائر

حاولت فرنسا تحريض محمد علي في احتلال الجزائر والمغرب العربي بشرط ان يحقق لها النفوذ الادبي والاقتصادي فيها ومساعدته ماليا وعسكريا، وعندما علمت

بريطانيا انذرت محمد علي بتقويض ملكه اذا زحف على شمال افريقيا.

اصدر ملك فرنسا بالتعبئة في شباط ١٩٣٠، واعلن عزمه على مهاجمة الجزائر مدعيا ان هذه الحملة انما هي رد على اهانة فرنسا، فارسل حملة من ٣٥ ألف ممحارب نزلت على الشاطيء الجزائري، وتمكنت من احتلال العاصمة والمدن الساحلية ونهب الجنود الفرنسيون العاصمة للمقاومة التي ابداها السكان.

السياسة الفرنسية

اعلن الفرنسيون ان الجزائر جزء من فرنسا يحكمها حاكم فرنسي عام، وفتحوا ابواب الهجرة، فتدفق الفرنسيون اليها، ولا سيما اثر هزيمة الفرنسيين في حرب ١٨٧٠ واحتلال المانيا لمقاطعتي الالزاس واللورين، وقد اصبح المستوطنون الفرنسيون في الجزائر حوالي مليون. وقد ركزت فرنسا على افناء الشعب الجزائري لاحلال الجاليات الاوربية مكانه ولا سيما في المدن والقرى الساحلية، وقد اعترف وزير حربية فرنسا بذلك، فقال يجب القضاء على شعب الجزائر، او على الاقل تشريده الى داخل البلاد. وانترعت الحكومة الفرنسية الاراضي العربية وسلمتها للفرنسيين، وصادرت املاك الدولة واراضي االبدو الاوقاف، حتى استطاعت الجاليات الفرنسية السيطرة على ٦٥٪ من اراضي الجزائر، مع ان المستوطنين الفرنسيين كانوا لا يشكلون الا ١٠٪ من مجموع السكان.

واحتكر الفرنسيون مصادر الدخل الجزائري، فسيطروا على الصناعة والزراعة والثروة المعدنية والتجارة والمواصلات. ولذلك عاش الجزائريون في فقر مدقع، فكان معدل دخل الفرنسي عشرة اضعاف دخل المواطن الجزائري، وارهق السكان المسلمون بالضرائب بعد ان حرموا من معظم مصادر رزقهم.

وركز الفرنسيون على تجهيل المواطنين، وحرموا السكان من التعليم، ومن المستشفيات، والحدائق العامة، وسائر الخدمات الاجتماعية، فكثرت الامراض السارية كالسل والملاريا، وحرموا من الوظائف الهامه، كما ركزت الحكومة الفرنسية على اسلوب فرق تسد بين فئات المجتمع المختلفة.

ولم تقف فرنسا عند هذا الحد، بل حاولت فرنسة السكان ففرضت تعليم اللغة الفرنسية وحدت من تعليم اللغة العربية، ومنعت تعليم الدين الاسلامي واتجهت الى تثقيف الجزائريين بالثقافة الفرنسية، وفرضت عليهم التجنيد الاجباري.

المقاومة العربية

ادت قسوة الفرنسيين الى ازدياد مقاومة السكان، وعدم قدرة الفرنسيين على التغلغل الى داخل البلاد، وخلال المقاومة برزت عدة ثورات اهمها :

- **ثورة الامير عبد القادر الجزائري**

ة جزائريون الاحتلال الفرنسي في عدة مناطق ابرزها قسنطينة وتيطري وبسكره، ولم يكن تنسيق بين عناصر المقاومة الى ان ظهر الامير عبد القادر الجزائري.

ينتمي الامير عبد القادر الى قبيلة هاشم العربية التي كانت تعيش قرب مدينة معسكر، وكانت اسرته ذات مكانة بارزة في القبيلة، فاختير اميرا على القبائل المحيطة وهو في سن الرابعة والعشرين سنة ١٨٣٢

اعلن الامير عبد القادر الجهاد ضد الفرنسيين في كانون ثاني سنة ١٨٣٢ والتف حوله الجزائريون، واتخذ مدينة معسكر عاصمة له، ونجح في قطع طرق تموين مواصلات الجيش الفرنسي واوقف توغلهم نحو الداخل، وبسط سيطرية. على ميناء ازرو غرب وهران، واذاع فتوى اعتبرت كل من ساعد الفرنسيين مرتدا عن دينه، واجبر الفرنسيين على عقد اتفاقية تنهي حالة القتال بين الطرفين، وسرعان ما نقض الفرنسيون المعاهدة سنة ١٨٣٤، وهاجموا عاصمة الامير ودمروها، غير ان الامير صد القوات الفرنسية، واجبرهم على عقد معاهدة تافنا في ٣١/٥/١٨٣٧، اعترفت فيها فرنسا بحكم الامير عبد القادر للمناطق التي يسيطر عليها.

استغل الامير المعاهدة بتثبيت حكمه وتوحيد الاهالي، واقامة دولته وإرساء أركانها، فشكل الامير مجلس وزراء، ومجلس شورى، واستعان بالخبراء الاوروبيين لتنظيم جيشه، واقام المصانع ولاسيما مصانع الاسلحة من مدفعية وذهيرة، وبلغ جيشه حوالي عشرة آلاف مقاتل واعتبر دولته تابعة لسلطان المغرب حرصا على استمرار تأييدها له.

نقض الفرنسيون المعاهدة ثانية، فهاجم الجزائريون القوات الفرنسية، واوقعوا بها خسائر جسيمة، وسرعان ما عززت الحكومة الفرنسية قواتها بمئة الف جندي، واتبع القائد الفرنسي خطة الارض المحروقة، واحتل قسنطينة، وقد وصف احد معاوني بوجو القائد الفرنسي الخطة بقوله: كانت حملتنا تدميرا منظما اكثر منه عملا عسكريا، ونحن اليوم في وسط جبال مليان، لا نطلق الا قليلا من الرصاص، نمضي وقتنا في حرق المدن والقرى والاكواخ، وقد نجحنا في حرق المزارع وابادة السكان وتشريدهم وبهذا تناقص

سكان الجزائر من جراء هذه الحملة خلال سبع سنوات من اربعة ملايين الى ثلاثة ملايين نسمة.

التف المواطنون حول ثورتهم، ولكن تنظيم الجيش الفرنسي واستخدامه الاسلحة الحديثة والمدمرة تفوقت على شجاعة الجزائريين، فالتجأ الامير الى المغرب، وعندما هاجم الفرنسيون المغرب، اضطر السلطان المغربي الى عقد معاهدة طنجه سنة ١٨٤٤ تقضي بتسليم عبد القادر الجزائري، فعاد الامير الى الجزائر ليتابع نضاله، وقام بحركات عسكرية سريعة ادت الى قطع خطوط مواصلات الفرنسيين، ادت الى الانتصار عليهم مؤقتا، الا ان كفة الفرنسيين رجحت اخيرا واضطر الامير الى الاستسلام سنة ١٨٤٧، فاقتيد الى فرنسا، ثم عفى عنه الفرنسيون سنة ١٨٥٢، ونقل الى سوريا لينتقل الى الرفيق الاعلى سنة ١٨٨٣.

- لم يستسلم الجزائريون للاحتلال الفرنسي فقادت لا لافاطمة ثورة، وقاتلت الفرنسيين بشجاعة الى ان استشهدت.

- **ثورة محمد المقراني**

اوجدت الثورة الجزائرية الوعي القومي عند الجزائريين، ومهدت لظهور عدة ثورات، فقد تمردت فرق السباهية [الجزائريون الذين استخدموا في المحافظة على الامن الداخلي] اثر هزيمة فرنسا في حربها مع المانيا سنة ١٨٧١، ورفضت الابحار من الجزائر للاشتراك في هذه الحرب، وسرعان ما اندلعت ثورة في جبال القبائل في اقليم قسنطينة بزعامة محمد بن احمد المقراني احد الحكام الوطنيين الذين ابقاهم الفرنسيون في المناطق التي خضعت للفرنسيين دون حرب، وامتدت الثورة الى سهل ميتجه، وبسكره بعد ان منح اليهود في الجزائر صفة المواطن بكل ما يترتب على ذلك من حقوق.

استمرت الثورة حوالي اربعة اشهر، استشهد خلالها المقراني، فضعفت الثورة، واستسلم المقاتلون بعد ذلك، فقبضت فرنسا على عشرات الالوف اودعتهم السجن، كما حكمت على ٦٠٠٠ من الثوار بالاعدام، ولكن الحكم خفض الى النفي الى جزر المحيط الهادي، وصادرت السلطات الفرنسية اكثر من مليون هكتار من اراضي القبائل كما فرضت غرامة حربية عالية على المواطنين.

- **ثورة اولاد سيدي الشيخ :**

استمرت الثورات في الجزائر، ففي عام ١٨٨١ اشتعلت ثورة بزعامة بوعمامه، فقمعها الفرنسيون بوحشية متناهية.

تونـــس

كانت تونس ولاية عثمانية، وكانت تبعيتها اسمية، وقد حكمتها الاسرة الحسنية منذ القرن الثامن عشر، ولم يعد يربطها بالسسلطة العثمانية سوى رابطة الولاء للخليفة.

محاولات الاصلاح :

حاول بعض بايات تونس النهوض بالبلاد في القرن التاسع عشر، فقد حاول احمد باي انشاء دولة عربية اسلامية ترتبط بالدولة العثمانية ارتباط صداقة ومودة، ولكنه اخطأ الطريق عندما تقرب الى فرنسا، ولم ينجح في تنظيم اقتصاديات البلاد، وفرض الضرائب الباهظة على الشعب، ولم يستطع التوازن بين الدخل والانفاق، وسار خلفه محمد باي [اخوه] على منوال اخيه، الامر الذي ادى الى تدخل فرنسا في البلاد، وفرض سلطانها عليها، حاول الباي محمد الصادق تحسين الاوضاع الداخلية في البلاد، فعقد القروض الفخمة للقيام بالاصلاحات، حتى بلغت الديون ١٥٠ مليون فرنك، وعجزت الدولة عن تسديد الديون، فساءت الاحوال المالية واصبحت الظروف مهيأة لتدخل الدول الاوروبية، وبخاصة عندما بادر الباي الاستعانة بانكلترا وفرنسا وايطاليا، ومنحها بعض الامتيازات بموجب المرسوم ١٨٦٩ الذي يقضي بتأليف لجنة من محتليها وتوحيد الدين، وتحديد فوائده، وادارة المرافق التي خصصت ايراداتها للوفاء به.

الاطماع الاوربية في تونس

تطلعت الاقطار الاوروبية للسيطرة على تونس، الا ان فرنسا استطاعت كسب تأييد الموقف الدولي لضم تونس، فقد ايدت بريطانيا مطامع فرنسا في تونس اثناء انعقاد مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ مقابل سكوتها على ضم قبرص، كما ايدت المانيا فرنسا في احتلال تونس ليشغلها ذلك عن المطالبة بالالزاس واللورين، ولابعاد النشاط العسكري الفرنسي عن الحدود الفرنسية الالمانية، وسبقت فرنسا ايطاليا في احتلال تونس التي كانت ترى انها احق من فرنسا في احتلالها لكثرة المستوطنين الطليان فيها.

الاحتـــلال

تطلعت فرنسا لاحتلال تونس حرصا على حماية مركزها في الجزائر واستثمار موارد تونس الزراعية والمعدنية، ولاهمية موقع تونس الاستراتيجية وسيطرته على طرق

المواصلات البحرية في البحر المتوسط، واستغلت الازمة المالية، وتراكم الديون الاجنبية على تونس، فأخذت تتدخل في الشؤون الداخلية للبلاد بحجة حرصها على مصالح تونس.

وعندما تهيأت لفرنسا جميع الوسائل المناسبة جهزت حملة كبيرة هاجمت فيها تونس، فقد ادعت ان قبائل خمير الموجودة في غرب تونس هاجمت الحدود الجزائرية، وتذرعت ان الحالة اصبحت غير محتملة، وأن الجرائم والاعتداءات ترتكب كل يوم، تقدمت القوات الفرنسية، فاحتلت الكاف، ثم بنزرت وزحفت نحو العاصمة دون مقاومة تذكر، ذلك ان القوات التونسية كانت شعيفة. طلب باي تونس من دول العالم المتوسط مع فرنسا لوقف عدوانها، ولكن الدول لم تستجب.

سلم القائد الفرنسي نسخة معاهدة للباي محمد الصادق، وطلب توقيعها خلال اربعة ساعات، وهكذا فرضت فرنسا معاهدة باردو على تونس بتاريخ ١٢ أيار ١٨٨١ وجاء فيها:

- الموافقة على احتلال القوات الفرنسية للمراكز التي تراها صالحة لتوطيد الامن على الحدود والسواحل على ان يزول الاحتلال عندما يتفق الطرفان على عدم بقاء ضرورة له.
- يتعهد الباي الا يبرم او يعقد معاهدة مع اية دولة اخرى الا بموافقة من فرنسا.
- تشرف فرنسا على وضع نظام مالي يساعد على وفاء تونس لديونها بالاتفاق مع الباي.
- يكلف ممثلو فرنسا الدبلوماسيون بحماية رعايا تونس ومصالحها في الخارج.

قاوم الشعب التونسي الاحتلال والحماية الفرنسية، فقاد على بن خليفة ثورة في الجنوب الا ان القوات الفرنسية الثورة بمنتهى الشدة.

كانت الدولة العثمانية في تلك الفترة ضعيفة عسكرياً، كما ان روسيا كانت قد هزمتها قبل بضع سنوات، لذلك لم تستطع القيام باي عمل، فقدمت احتجاجاً شديد اللهجة، غير ان فرنسا ثبتت اقدامها في تونس. وفرضت معاهدة المرسي الكبير سنة ١٨٨٣ على الباي علي الذي خلف أخاه محمد الصادق وقد وضعت هذه المعاهدة تونس تحت الحماية الفرنسية، وحرمتها من عقد اي اتفاقية مع الدول الاخرى، وأجازت لفرنسا ادارة البلاد.

سياسة فرنسا في تونس

وطدت فرنسا اقدامها في تونس، وقضت على نظام البلاد البرلماني، وجعلت السلطة

التشريعية بيد الباي على ان لا تنفذ المراسيم التي يصدرها الا بعد تصديق المقيم الفرنسي العام، وقد اوجدت فرنسا مجلس الشورى سنة ١٨٩٦ ويضم ٣٦ عضواً فرنسيا و١٦ عضواً تونسيا يعينهم المقيم العام.

سيطرت فرنسا على مصادر الاقتصاد التونسي، فقد صادرت فرنسا اراضي الدولة والأراضي المشاع، واملاك الاوقاف الاسلامية، ثم اصدرت قانون التسجيل العقاري سنة ١٨٨٥ انتزعت بمقتضاه املاك التونسيين الذين لم يقدموا وثائق ملكية اراضيهم، ووزعت الأراضي المصادرة على المستوطنين الفرنسيين، وبلغت مساحة الأراضي المصادرة ثلث مساحة البلاد.

احتكر الفرنسيون الصناعة في تونس، واستخراج المعادن، والتجارة الخارجية، وبذلك سعى الفرنسيون الى افقار التونسيين وتشتيتهم وابادتهم، وشجعت فرنسا الهجرة الفرنسية الى تونس وفتحت ابواب الوظائف أمامهم، واغدقت عليهم الرواتب العالية، ووفرت جميع الخدمات التعليمية والصحية لهم.

حاولت فرنسا محو الثقافة العربية الاسلامية في تونس، فحاربت تعليم اللغة العربية والدين الاسلامي، وجعلت اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية المستخدمة في المعاملات الرسمية وفي التعليم، وقللت المدارس العربية، ووضعت المناهج التي تنافي الثقافة العربية من لغة وتاريخ وقيم واتجاهات، وكان رائدها فرنسة الشعب التونسي.

قاوم التونسيون هذه السياسة، وبدأوا يلتحقون في المدارس الاسلامية،وجامع الزيتونة حفاظا على الثقافة العربية والاسلامية.

المقاومـــة:

قاوم التونسيون سياسة فرنسا الجائرة، وكان لمدرسة جامع الزيتونة والكتاتيب اثر كبير في المحافظة على الثقافة العربية الاسلامية، ومقاومة فرنسة التونسيين، وقد تجسدت المقاومة في عدد من الثورات منها:

- ثورة سفاقس: لم يقبل الشعب التونسي بمعاهدة بارود، وقد عبر عن عدم رضاه باعلان ثورة عارمة في سفاقس، هاجم الثوار مراكز القوات الفرنسية، فأرسلت امدادات ضخمة للجيش الفرنسي زادت عن ٤٥ الف جندي، تمكنت من قمع الثورة.

ثورة القيروان، اشتعلت ثورة اخرى في القيروان قضى عليها الفرنسيون بمنتهى الشدة.

- حركة تونس الفتاة سنة ١٩٠٧. قاد علي باش ثورة قوية، ركزت على المحافظة على

الحضارة العربية الاسلامية، وساهم في هذه الثورة عبد العزيز الثعالبي، واصدرت هذه الحركة «مجلة التونسي» باللغة الفرنسية والعربية كان لها اثر فعـال في تنبيه الشعب التونسي للاخطار التي تحيط به. الا ان فـرنسا عـطلت هذه المجلة، واعلنت الاحكـام العرفية.

- ثورة ١٩١٢: اضرب عمال الترام للحصول على حقوقهم، وحرمان الشباب العرب من الحقوق المساوية للتونسيين، وتضامنت الجماهير التونسية مع العمال، وانقلب الاضراب الى ثورة عارمة في تونس.

نفى الفرنسيون قادة الثورة، وحرمت العمال من مطالبهم وعاملت العمال بقسوة شديدة، وفصلت عدداً من العمال.

المغرب

لم يخضع المغرب لسيطرة العثمانيين، وبقي مستقلا الى أن وقع فريسـة في يد الفرنسيين والاسبان، وقد اتبع سلاطين المغرب سياسة العزلة في علاقاتهم الخارجية ليتجنبـوا اطماع الدول الاستعمـارية، واستـطاع المغرب التصـدي فتـرة من الزمن لجميع محاولات العدوان البرتغالي والاسباني المستمرة من القرن السادس عشر حتى اوائل القرن العشرين.

تنافس الدول الاوروبية على المغرب

يمتاز المغرب بموقفه الهام، اذ يشرف على مضيق جبل طارق وعلى المحيط الاطلسي، ويتحكم بطرق المواصُلات البحرية الى المتوسط ومنه، لذلك تنافست الدول الاوروبية في السيطرة على هذه البلاد لاهمية موقعها في ميزان القوى السياسية في العالم الاوروبي.

اقتضت مصالح بريطانيا ان لا توجد دولة قوية على الطريق المواجه لجبل طارق، وفرض سيطرتها على شمال غرب افريقيا، للمحافظة على مصالحها التجارية، ولحماية قاعدتها في جبل طارق، وكانت اسبانيا تعتبر المغرب منطقة نفوذ لها لقربه من اراضيها ولتعويضها عن خسارتها للمستعمرات الكثيرة في امـريكا، ولحمـاية مـا كان لهـا من ممتلكـات في المغرب، وطمعت المـانيا في جعـل المغرب سـوقاً لصنـاعتها المتنـامية، ومـوطنا لهجرة الفائض من سكانها، وقاعدة لاسطولها التجاري والبحري نحو افريقيا وامريكا الجنوبية، كما ان ايطاليا كان طامعة بها لاشباع اطماعها الاستعمارية.

اما فرنسا فكانت اكثر الدول الاستعمارية حريصة على احتلال المغرب، لانه متاخم للجزائر، واحتلاله ضرورة للمحافظة عليها، بل وتعتبر فرنسا المغرب جزء من المغرب العربي الذي تريد السيطرة عليه، لاستثمار ثرواته الوفيرة، وحماية مصالحها التجارية والمالية في ربوعه.

أحس المغرب بمؤامرات فرنسا فثارت خلافات بين القطرين عندما كانت قبائل جزائرية تدخل المغرب طلبا للمساعدة، وبلغت الخصومة الذروة عندما طاردت القوات الفرنسية الامير عبد القادر الجزائري الى داخل المغرب واحتلت قرى وبلاداً مغربية بحجة ان الحدود غير واضحة، ثم ضربت اساطيلها مدينة طنجة مما ادى الى وقوع الحرب بين الجانبين، وهزيمة الجيش المغربي، وقبول المغرب الارتباط مع فرنسا باتفاقتين لتخطيط الحدود والعلاقات التجارية.

حاول السلطان الحسن بن محمد (١٨٧٣ ـ ١٨٩٤) ان ينقذ بلاده من الخطر الفرنسي والاستعماري الذي يتهددها، فبدأ بتأسيس جيش منظم، واستقدم الخبراء العسكريين من اوروبا لاتمام ذلك، كما ارسل البعثات العسكرية الى اوروبا لتعلم الفنون العسكرية الحديثة، وحاول ايجاد توازن بين اطماع الدول الاوروبية، فشجع على عقد مؤتمر مدريد سنة ١٨٨٠ لدراسة المشاكل الدولية المتعلقة بالغرب، الا ان المؤتمر اصدر سلسلة من القرارات لم تكن في صالح المغرب. فقد اكدت القرارات امتيازات الاجانب بالاعفاء من الضرائب والمحاكم امام المحاكم القنصلية لبلادهم، واباحت للاجانب تملك العقارات تطبيقاً لبدأ المساواة في الامتيازات.

خطط فرنسا للاستيلاء على المغرب

تولى السلطان مولاي عبد العزيز بن الحسن السلطة سنة ١٩٠٠، وكان قليل الخبرة السياسية، ففتح البلاد امام جميع الجنسيات حيث اخذوا يغرون السلطان بالمظاهر البراقة من المدنية الغربية، مما ادى الى اسرافه الشديد ووقوعه في حبائل القروض الاجنبية، فاستدان من فرنسا سنة ١٩٠٤ حوالي ٦٢,٥ مليون فرنك بشروط قاسية تسدد من ايرادات الجمارك، مهدت لفرنسا التدخل بشؤون المغرب بشكل سافر.

اخذت فرنسا تفكر بالاستيلاء على المغرب فعقدت سلسلة من الاتفاقات الثنائية مع الدول الطامعة ببلاد المغرب، فبدأت سنة ١٩٠٠ بتوقيع اتفاقية مع ايطالية تعهدت فيها فرنسا باعتبار طرابلس الغرب وبرقة خارجتين عن منطقة نفوذها مقابل اطلاق يد فرنسا

في المغرب. وفي عام ١٩٠٤ وقعت فرنسا الاتفاق الودي مع بريطانيا تعهدت بريطانيا باطلاق يد فرنسا في المغرب مقابل اطلاق يد بريطانيا في مصر، ثم تفاهمت مع اسبانيا على تقسيم المغرب، فوقع الطرفان سنة ١٩٠٥ على منح الريف لاسبانيا، وبقية البلاد لفرنسا.

اخذت فرنسا تضغط على الحكومة المغربية، ولكن الامبراطور الالماني غليوم الثاني ادرك مؤامرات فرنسا، فقام بزيارة طنجة سنة ١٩٠٥، وأعلن ان المانيا لن تسمح لاية دولة بأن تمس سلطان مراكش، واكد على حماية مصالح المانيا، واقترح عقد مؤتمر دولي لبحث المسألة المراكشية، وقد تأزمت العلاقات بين فرنسا والمانيا لتصريحات الامبراطور الالماني.

مؤتمر الجزيرة سنة ١٩٠٦

عقد مؤتمر الجزيرة الخضراء قرب جبل طارق سنة ١٩٠٦، حضرته معظم دول اوروبا، واصدر قرارات اعترف فيها باستقلال المغرب الظاهري، ولكنه منح الدول الاوروبية امتيازات اقتصادية وعسكرية، واخضع جمارك المغرب الى الاشراف الدولي، واقر الحرية الاقتصادية لجميع الدول دون تمييز في اراضي المغرب، وانشأ قوة وطنية للامن يشرف عليها ضباط من الاسبان والفرنسيين لا يزيد عددهم على خمسين ضابطاً يرأسهم من الناحية الادارية مفتش سويسري، ويوافق السلطان على تعيينهم، وبذلك اعترفت الدول الاوروبية بالنفوذ الفرنسي والاسباني في مراكش.

الاحتلال الفرنسي والاسباني للمغرب:

ثار الشعب المغربي على هذه القرارات، فأرسلت فرنسا قواتها لاخماد الثورة، واحتلت ميناء الدار البيضاء سنة ١٩٠٧ بدعوى مقتل بعض العمال الاوروبيين فيها على يد الثوار، وفي عام ١٩١١ ثارت القبائل على السلطان عبد الحفيظ، وهاجموا مدينة فاس، احتجاجا على استدانته قرضاً من فرنسا مقابل اشراف فرنسا على الجمارك ووضع ٥٠٪ من الضرائب العقارية بالمدن وايراد الاملاك الاميرية ورسوم الشاي تحت تصرفها لاستيفاء الديون.

تدخلت القوات الفرنسية بدعوى اخماد الاضطرابات، واحتلت مدينة فاس ثم مكناس والرباط، كما استولت اسبانيا على العرائش وعدة مناطق في الريف، الامر الذي حدا بالمانيا الى الاحتجاج، لانها عدت الاحتلال الفرنسي والاسباني نقضاً لقرارات الجزيرة الخضراء، وارسلت طراداً الى ميناء اغادير المغربي بحجة حماية رعاياها (ولم يكن لها رعايا هناك) الا ان فرنسا ارضت المانيا، وتنازلت لها عن جزء من اراضي الكونغو

الفرنسية مقابل اعتراف المانيا بحق فرنسا في المغرب.
فرضت فرنسا الحماية على السلطان في سنة ١٩١٢، تعهدت فرنسا فيها بحماية السلطان وعرشه وخلفائه، وحقها في اجراء الاصلاحات التي تتفق ومصلحة البلاد، وتمثيل المغرب في الخارج، مقابل السماح للقوات الفرنسية باحتلال المغرب، وممارسة اعمال حفظ الامن في الاراضي المغربية ومياهها الاقليمية، شريطة ان يصدر السلطان القوانين التي تقترحها فرنسا، وان لا يمنح السلطان اي امتياز لاية دولة دون موافقة فرنسا.

ثار الشعب المغربي ثانية على المعاهدة، ولما لم يفلح الفرنسيون بالقضاء عليها تنازل السلطان عبد الحفيظ عن العرش، وعين مكانه مولاي يوسف والد السلطان محمد الخامس.

تقسيم المغرب

اتفقت فرنسا واسبانيا سنة ١٩١٢ على تحديد منطقة كل منهما، واتفق على ان تتشاورا قبل اتخاذ اي اجراء من شأنه المساس بالنظام الاساسي المتفق عليه للمغرب، واتفق على ان يعين على الريف المغربي خليفة يعينه سلطان المغرب بترشيح من اسبانيا.

واما طنجه فقد تأخر الاتفاق حول وضعها حتى عام ١٩٢٣، لاهتمام دول اوروبا بها، فنظرت انكلترا لها على انها المنطقة التي تريد استعمارها بوقوعها مقابل جبل طارق، كما اهتمت اسبانيا بها لمتاخمتها منطقة الريف، اما فرنسا فكان تريد ان يكون البحر المتوسط بحيرة فرنسية، كما كان بحيرة رومانية من قبل.

واخيراً اتفق على وضع نظام دولي بطنجة سنة ١٩٢٣ ليقضي على مخاوف الأول وينهي الاطماع الاستعمارية المتباينة، ويشمل النقاط التالية:

- تتألف السلطة التنفيذية من ممثلين عن فرنسا واسبانيا وانكلترا وسلطان مراكش.
- يتألف المجلس التشريعي من ٢٥ عضوا تمثل الجاليات المختلفة بما فيها المسلمين واليهود.
- يعين للميناء حاكم اداري فرنسي يعاونه اسباني وآخر انكليزي.
- تتشكل لجنة مراقبة لا تتقيد بقرارات المجلس التشريعي، وتتألف من ممثلين فرنسا واسبانيا وانكلترا والسلطان.

وهكذا اصبح المغرب يقسم الى ثلاثة اقسام:

أ - طنجة دولية ب - الريف المراكشي وتسيطر عليه اسبانيا جـ - المغرب ويسيطر عليه فرنسا.

سياسة فرنسا في المغرب

اتبع الفرنسيون نفس السياسة التي اتبعوها في تونس، فقد ابقت على شكل الحكم الوطني برئاسة السلطان، ومجلس للوزراء ولكن الحكم الحقيقي كان بيد المقيم العام الفرنسي والمستشارين الفرنسيين للوزراء المغاربة، وبهذا وضعت الادارة المغربية تحت ادارة ضباط فرنسيين لضمان السيطرة الكاملة على المدن الحساسة.

وفي مجالس الاقتصاد ابقى الفرنسيون على التبعية الاقتصادية التامة للاقتصاد الفرنسي، فسيطر الفرنسيون على جميع مصادر الاقتصاد من زراعة، وصناعة، ومعادن وتجارة، وكان لرأس المال الاجنبي الاولوية في شتى الاعمال الاستثمارية.

وسيطر الفرنسيون على الوظائف العالية، ولم يتركوا للمغاربة الا عشر الوظائف العليا، ونصف الوظائف الثانوية.

وحرم المغاربة من التعليم واتبع الفرنسيون سياسية تعليمية تركز على تجهيل الشعب، وصبغه بالصبغة الفرنسية، والغاء اللغة العربية والدين الاسلامي واعتبار الفرنسية هي اللغة الرسمية في البلاد، والتركيز على تاريخ وثقافة فرنسا.

وفي مجال الاجتماعي حرم العمال العرب من التمتع بالقوانين الاجتماعية والتشريعات العمالية التي يتمتع بها العمال الفرنسيون في المغرب، وحرم المغاربة من الانتماء لاي رابطة او تأسيس نقابات مهنية، واعتمدت فرنسا سياسة فرق تسد، وركزت على خلق قومية بربرية وقومية عربية واشاعت الانقسام بين القوتين، واشادت بالتقاليد البربرية، فاصدرت قانون الظهير البربري سنة ١٩٣٠، الذي يبعث تقاليد البربر القديمة وعاداتهم لسلخ البربر عن الشريعة الاسلامية، واهمل الفرنسيون الشؤون الصحية وتركوا المغاربة تحت رحمة الامراض والاوبئة.

وفتحت ابواب الهجرة للفرنسيين والاجانب على مصراعيها، ومنح المهاجرون تسهيلات كبيرة، وامتيازات متعددة وقد بلغ عدد الاجانب في المغرب حوالي نصف مليون شخص مقابل ٩ ملايين مغربي، واغتصب الفرنسيون معظم الاراضي المغربية الخصبة، حتى بلغ ما انتزعه الفرنسيون حوالي خمس اراضي المغرب.

المقاومة العربية

لم يتحمل المغاربة هذه السياسة الفرنسية الجائرة، وحرمانهم من مصادر رزقهم واعتبارهم اجانب في بلادهم، ولم يجدوا حلاً الا مقاومة المغتصبين.

لم تفتر همة المغاربة في مقاومة الاستعمار الاوروبي وبخاصة الفرنسي، فقد اندلعت المقاومة اثر صدور قرارات إلجزيرة الخضراء تبعتها ثورة عارمة سنة ١٩١١ احتجاجاً على الاتفاقية التي عقدها السلطان عبد الحفيظ سنة ١٩١٠ الذي يقضي باشراف فرنسا على الجمارك.

وفي عام ١٩١٢، وضع الجيش المراكشي تحت امرة ضباط فرنسيين فاشتطوا في معاملة المغاربة، فتمردت حامية فاس على الضباط الفرنسيين وقتلت ثمانية وستين ضابطاً من الرتب العالية، ثم استولى المغاربة على المدينة وانضمت الجماهير الى الجيش الثائر، وقد نجح المارشال الفرنسي ليوني بالقضاء على الثورة بعد مقاومة عنيفة، وبعد تنازل السلطان عن عرشه.

تتابعت ثورات المغاربة على الفرنسيين، فقامت قبائل الشراردة بالتمرد على السلطات الفرنسية شرق فارس، وقبائل الهواره واولاده بوقيس.

ثم انتقلت الثورة الى الشيخ ماء العينين واينه هبة الله، فاكتسحوا مناطق الجنوب، وزحفوا الى مراكش، واحتلوا اغادير، ولكن القوات الفرنسية عرقلت تحركات الثوار، واستمرت الثورات المتتالية حتى عام ١٩٣٥.

وفي الريف قاد محمد امزيان ثورة عارمة ازهقت فيها ارواح عديد من الاسبان، بل ابادت فرقة عسكرية كاملة، مما اضطر الاسبان الى عقد هدنه مع القبائل الثائرة، الا ان الوضع استمر بين قتال وهدنه الى ان ظهر الامير عبد الكريم الخطابي.

موريتانيا

كانت موريتانيا جزءاً من دولة المرابطين ثم الموحدين، وعندما ضعفت الاخيرة اصبحت جزءاً من المغرب في عهد الاشراف العلويين منذ منتصف القرن السابع عشر، ثم استقل بعض رؤساء القبائل بالحكم الا انها اصبحت ترتبط اسمياً بالمغرب عندما ضعف الحكم العلوي.

الاستعمار الفرنسي.

اصبحت موريتانيا في أواخر القرن الثامن عشر في عزلة عامة يتنازعها امراء القبائل الذين دابوا على فرض الاتاوات على الدولة الاوروبية مقابل حماية تجارتهم، مما لفت انظار الاوروبيين الى اهمية موقع موريتانيا.

تطلعت فرنسا سنة ١٨٣٠ لاحتلال موريتانيا لوقوعها على طريق المستعمرات الفرنسية في افريقيا، ففي عام ١٩٠٥ فرضت فرنسا سيطرتها عليها كمنطقة تابعة

للسنغال، واطلقوا عليها اسم موريتانيا وهو مشتق من مور الذي الذي اطلقه القرطاجيون على شعوب افريقيا الشمالية، الا ان الاسم الحقيقي لهذه المنطقة هو بلاد شنقيط.

سعت فرنسا الى فرنسة البلاد، واحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية بدعوى قصورها عن استيعاب العلوم الحديثة، كما عملت على احتكار اقتصاديات البلاد، واستثمار مواردها ولا سيما تجارة الصمغ.

المقاومة الوطنية:

واجه الموريتانيون المستعمرين الفرنسيين منذ اللحظة التي بدأ الفرنسيون يغزون البلاد، فاعلن ماء العينين الجهاد، وتمكن من طرد الفرنسيين سنة ١٩٠٦ من منطقة «الادرار» ثم اتجه نحو الجنوب مكبداً الفرنسيين خسائر جسيمة في الوقت الذي سقط العشرات من الوطنيين شهداء اثناء القتال، غير انه لم يتمكن اهالي موريتانيا من مواجهة القوة الفرنسية الحديثة، فاستسلمت البلاد، ليثور الاهالي كلما سنحت الفرصة بذلك.

الاستعمار البريطاني

بدأ الانكليز يتطلعون الى شواطيء الجزيرة العربية بعد سيطرتهم على الهند لوقوعها على الطريق التجاري الى الهند، وكانت حملة نابليون على مصر نقطة البداية في تحركات انكلترا لضمان نفوذها في الهند، فاحتلت جزيرة بريم سنة ١٧٩٩ عند مدخل مضيق باب المندب، ثم عقدت معاهدات غير متكافئة مع سلطان لحج وعدن، وعقدت معاهدة مع سلطان مسقط سنة ١٨٠٢، ومعاهدة مع امير البحرين عام ١٩٢٠، وركزت هذه المعاهدات على تسهيل التجارة الانجليزية، وعدم تأجير اراضيهم لغير بريطانيا.

وفي عام ١٨٣٩ احتل الانجليز عدن، ثم عقدوا معاهدات قطر والكويت، وقد أدت هذه المعاهدات الى فرض الحماية على جميع شواطيء الجزيرة العربية والشرقية والجنوبية.

حاولت بريطانيا احتلال مصر سنة ١٨٠٧ ولكن المصريين احبطوا محاولتهم ثم قاموا سنة ١٨٨٢ بقصف الاسكندرية، ونزلوا ارض مصر بعد ان هزموا الجيش المصري الذي يقوده احمد عرابي في معركة التل الكبير سنة ١٨٨٢، ثم تقدم الانجليز نحو القاهرة فاستسلمت، وفي عام ١٨٩٩ تمكن الانكليز والمصريين باعادة احتلال السودان واخضعوها للحكم الثنائي.

وفي اثناء الحرب العالمية الاولى اتفقت بـريطانيـا وفرنسـا على اقتسـام الهلال الخصيب، فعقدا اتفاقية سايكس ـ بيكو بينهما سنة ١٩١٦ اتفقا على:

أ ـ تعتـرف الدولتان بقيـام دولة عربيـة مستقلة في الاقسام الداخليـة من العراق وسوريا، يكون لفرنسا مهمة تقديم المستشارين والقيام بالمشاريع الاقتصادية في سوريا الداخلية ولبريطانيا نفس الشروط في العراق الداخلي.

ب ـ تقام ادارة فرنسية في ساحل لبنان وسوريا، وادارة بريطانية في جنوب العـراق وشرق الاردن.

ج ـ تقام ادارة دولية في فلسطين على ان تحتفظ انجلترا بمينائي حيفا عكا وحيفا.

وفي عام ١٩١٧ اصدر بلفور وزير خارجية بريطانيا وعده المشؤوم باعطاء فلسطين وطنيا قوميا لليهود.

وفي عام ١٩٢٠ وقعت اتفاقية سان ريمو وضع العراق والاردن تحت الانتداب البريطاني، ووضعت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، كما وضعت فلسطين تحت الانتداب البريطاني على ان تقوم بريطانيا بتنفيذ وعد بلفور.

السياسة الاستعمارية البريطانية

اتخذت بريطانيا سياسة تمكنها من السيطرة على البلاد العربية التي احتلتها، ففي الناحية السيـاسية سلبت الاقـطار العربيـة حريتهـا، وعينت مندوبـاً بريـطانيا ومستشارين بريطانيين يديرون البلاد، وجردوا العرب من سلطاتهم الفعلية، كما مزقوا وحدة العالم العربي، وفتحوا ارض فلسطين لليهود، واقاموا لهم وطنا قومياً في فلسطين، وشردوا عرب فلسطين.

وفي الناحية الاقتصادية تحكموا في موارد البلاد الاقتصاديـة فاستغلوا انتـاج البتـرول، ولم يشجعوا الصنـاعة الوطنيـة، وركزوا ان يكـون الوطن العربي سـوقاً لصناعاتهم، كما ربطوا الاقتصاد العربي في عجلة الاقتصاد البريـطاني، حتى غدت المستعمرات البريطانية مزارع لتحقيق اهداف بريطانيا وسكانها.

وفي المجال الاجتماعي حاولوا تغيير العادت والتقاليد والقيم الاسلامية، وركزوا على خلق مشكلات الاقليات في كل قطر كمشكلة الاكراد في العراق، والزنوج في السودان، وكذلك تفتيت الوحدة الوطنية، بايجاد الحزازات بين فئات الشعب المختلفة كابراز دور العشائر في العراق.. الخ.

اما من الناحية التربوية فقد شجعوا اللغة الانكليزية، وحاربوا التراث الاسلامي، وحصروا التعليم في عدد قليل من السكان.

الاستعمار البريطاني في الخليج العربي

يحتل الخليج العربي موقعاً جغرافيا ممتازا بين الشرق والغرب، فجعله ذا اهمية تجارية عالمية على مر العصور، فكانت القوافل التجارية بين اوروبا وآسيا تمر في طريقها من الخليج العربي، فازدهر الخليج وزخرت موانئه بالحياة، وبخاصة صحار وخورفكان وراس الخيمة ومسقط والكويت والبحرين، وانتشر ابناء الخليج في المحيط الهندي، فتاجروا مع شواطيء افريقيا وآسيا ونشروا الاسلام بينهم.

واشتهر من بين ابناء الخليج احمد بن ماجد الملاح العربي المشهور المولود ينجد، وقد الف كتاب الفوائد في اصول علم البحر والقواعد، وقد ارشد فاسكو دي غاما في رحلته من ساحل افريقيا الشرقية الى كاليكوت.. وظل عرب الخليج يسيطرون على البحار الى ان جاء الأوروبيون في القرن السادس عشر ممثلا في البرتغاليين الذين جاسوا خلال ديار الخليج ثم جاء بعدهم الهولنديون والفرنسيون والانكليز.

البرتغاليون

اكتشف البرتغاليون راس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٢، وسيطروا على البحار الشرقية، واحتكروا التجارة، وانتزعوها من ايدي العرب، وتمكن الفونسو دي البوكيرك حاكم المستعمرات البرتغالية في الهند من احتلال جزيرة سوقطره ببحر العرب سنة ١٥٠٥، ثم احتل مسقط بعد ان احرقها واسر اهلها ثم احتل صحار واقام بها حصنا، ووصل البرتغاليون الى الكويت والبصره، وانشأوا عدة حصون بالخليج، وقد اشتهر البرتغاليون بروح التعصب الديني ولما قاومهم سكان الخليج، وحملوا راية الجهاد نعتهم البرتغاليون بالقراصنه، ولم تكن في الحقيقة المقاومة التي قام بها المسلمون الا الجهاد المشروع في سبيل الله لانقاذ الوطن.

وعندما فتح العثمانيون العراق سنة ١٥٣٤، أصبح على لدولة العثمانية حماية الخليج العربي والاراضي الاسلامية من العدوان الصليبي، فساعدت العرب في طرد البرتغاليين من مسقط سنة ١٦٤٩، وكانوا قد استولوا على صحار وطردوا البرتغاليين منها سنة ١٦٤٠، وواصل العرب تطهير بلادهم، وحتى ازالوا القواعد البرتغالية في الخليج نهائيا في القرن السابع عشر.

الهولنديون

حاول الهولنديون اقامة مراكز تجارية لهم في الخليج العربي بعد ضعف البرتغاليين في القرن السابع عشر، الا ان البحارة العرب ارغموهم على التخلي عن هذه المراكز التجارية.

الفرنسيون:

انشأ الفرنسيون شركة الهند الشرقية الفرنسية سنة ١٦٦٤ للتجارة، واقاموا علاقات جيدة مع العمانيين، فعقدوا معاهدة تجارية مع سلطان مسقط سمح لهم باقامة وكالة فرنسية تشرف على تجارة فرنسا في الشرق، كما اقاموا محطة لتزويد الاسطول الفرنسي بالمياه، وفي اثناء وجود نابليون في مصر ١٧٩٨ حاول الاتصال بسلطان مسقط، ولكن البريطانيين عرقلوا مساعيه.

البريطانيون

بدأ اهتمام الانجليز بالخليج العربي، منذ أن توطدت اقدامهم في الهند، وانشأوا شركة الهند الشرقية سنة ١٦٠٠ م، وقد دفعهم الى ذلك ان الخليج العربي يقع على طريق الهند، وفي احتلاله تأمين لهذه الطريق.

تطلعت بريطانيا الى اقامة مراكز تجارية لها في مدن الخليج، تكون قواعد لتموين اسطولها في المحيط الهندي، ولكن الاسطول البرتغالي عرقل وصول الاسطول البريطاني في الوصول الى الخليج العربي، فتحالف البريطانيون مع شاه فارس (الشاه عباس) فانتزع الفرس البحرين من البرتغاليين، واحتل الانكليز هرمز.

وعندما حاول الفرنسيون الاتصال بسلطان مسقط تنبه البريطانيون لذلك، واستطاعوا ان يملوا شروط معاهدة عليه سنة ١٨٠٠، تعهدا السلطان بالا يسمح للفرنسيين بالنزول في مسقط، وان يقف اسطول مسقط الى جانب الاسطول الانجليزي، وبذلك وقعت مسقط تحت الحماية البريطانية.

استيلاء بريطانيا على ساحل عمان

وصل الوهابيون ساحل عمان في بداية القرن التاسع عشر وتحالفوا مع شيوخ القواسم وحاولوا وقف الاطماع البريطانية في الخليج، فارسلوا قواتهم سنة ١٨٠٥ لمهاجمة القواعد البريطانية في مسقط، الا ان الاسطول البريطاني أعاد الكرة على القواسم، واستمرت الحرب بين الطرفين سجالا حتى عام ١٨١٩ حين انفذت بريطانيا حملة عسكرية الى رأس

الخيمة فقصفقتها عدة ايام،فاضطر القواسم «الشيخ صالح بن صقر القاسمي» الى ابرام اتفاقية مع بريطانيا تعهد فيها بعدم التعرض للسفن البريطانية، ثم وقع شيوخ ابي ظبي الحرب بين الطرفين سجالا حتى عام ١٨١٩ حين انفذت بريطانيا حملة عسكرية الى رأس الخيمة فقصفتها عدة ايام، فاضطر القواسم «الشيخ صالح بن صقر القاسمي» ابرام اتفاقية مع بريطانيا تعهد فيها بعدم التعرض للسفن البريطانية، ثم وقع شيخ ابي ظبي ودبي وعجمان وام القوين معاهدات مماثلة، وجاء في هذه الاتفاقات ان تمتنع الاساطيل العربية عن التعرض للسفن التجارية في الخليج، وان تسوى القبائل خلافاتها فيما بينها بالطرق السلمية.

وفي عام ١٨٢٩ وقع هؤلاء الشيوخ الهدنه البحرية مع بريطانيا تعهدوا باحلال السلم والوئام محل الحروب، وكان الشيوخ يجددون هذه المعاهدة سنويا.

الحماية البريطانية البحرين:

اغتمنت بريطانيا فرصة الخلافات الداخلية بين الاسرة الحاكمة في البحرين «آل خليفه» وفرضت حمايتها على البلاد بموجب اتفاقية سنة ١٨٦٣، وجددت المعاهدة سنة ١٨٨٠، وعينت ممثلا سياسيا لها لدى شيخ البحرين.

قطر:

وقعت قطر مع بريطانيا في عامي ١٨٢٠، ١٨٣٥ على معاهدتين تشبه المعاهدات التي عقدتها بريطانيا مع شيوخ امارات ساحل عمان، وفي عام ١٨٦٧ وقعت معاهدة ثالثة مع بريطانيا أشْتُرِطَ على شيخ قطر ان يرجع الى المعتمد البريطاني في كل خلاف يقع بينه وبين جيرانه.

وفي عام ١٨٦٩ أنتهز الشيخ محمد بن ثاني شيخ قطر فرصة احتلال القوات العثمانية للاحساء،فأعلن ولاءه للدولة العثمانية، فعين الشيخ قائممقام على قطر. وسمح للدولة العثمانية ان تبني محطة للفحم لتزويد السفن بالوقود ومرسى للسفن في ميناء الدوحة.

اعترضت بريطانيا، ولكن الامر بقى كما هو حتى عام ١٩١٣ حينما استطاع الامير عبد العزيز بن سعود الاستيلاء على الاحساء وطرد القوات التركية فيها، ولما وضعت الحرب العالمية اوزارها سنة ١٩١٩، اعيد افراد الحامية التركية الى العراق باعتبار انهم من اصل عراقي، واصبحت قطر امارة مرتبطة مع بريطانيا بمعاهدة حماية تكون بريطانيا مسؤولة عن حماية قطر وتمثيلها مع الدول الاخرى.

الكويت:

كانت الكويت تتمتع بحكم ذاتي تحت الادارة العثمانية، فلما تولى الشيخ مبارك الصباح زمام الحكم في الامارة سنة ١٨٩٧ بعد مقتل اخويه، استنجد ابناؤهما بالعثمانيين، ولكن الشيخ مبارك طلب الحماية من بريطانيا، ووقعت معه معاهدة سنة ١٨٩٩م نصت على ما يلي:

- لا تستقبل الكويت اي ممثل لاية دولة اخرى، او تتنازل عن اي جزء من ارضها الا بموافقة بريطانيا.
- تقوم انجلترا بحماية الكويت من اي عدوان خارجي.
- يكون حكم الكويت للشيخ مبارك وابنائه من بعده.
- تدفع بريطانيا اعانة مالية سنوية لشيخ الكويت.

لم تعترف الدولة العثمانية بهذه المعاهدة لان الكويت كانت تخضع للسيادة العثمانية، ولكن حدث عام ١٩١٣ ان اعترفت الدولة العثمانية باستقلال الكويت الداخلي والمعاهدة التي عقدها شيخ الكويت مع بريطانيا، وبقيت المعاهدة سارية المفعول حتى عام ١٩٦١.

الجنوب العربي:

كانت حملة نابليون سبباً في اتجاه الاستعمار الاوروبي نحو هذه البلاد، فقط ايقظ ذلك الخوف قلوب الانجليز من هذه الحملة التي اصبحت تشرف على طريق الهند، وزادت مخاوف بريطانيا عندما فتح محمد علي بلاد العرب وحاول القضاء على الحركة الوهابية، وفتح محمد علي السودان، وذلك يعني ان البحر الاحمر قد اصبح بحيرة مصرية، وكان الانكليز يعتمدون في البحر الاحمر على موانيء السودان واليمن، فلما اصبح السودان في حوزة محمد علي تركز اعتمادهم على اليمن، لكن اليمن لم يلبث ان دخل في حوزة محمد علي، وهكذا احس الانجليز ان البحر الاحمر قد خرج من ايديهم الى مصر وسعوا الى انتزاعه منها بكل ما يستطيعون من قوة.

ولى الانجليز وجههم شطر اليمن، واستطاعوا ان ينتزعوا من امام اليمن حقوقاً بمقتضى معاهدة عقدت بينهم سنة ١٨٢١، فاصبح للمقيم البريطاني الحق في احاطة نفسه بحرس خاص، وخفضت المكوس التي يدفعها التجار الانجليز فاصبحت مساويه لما يدفعه الفرنسيون، وبذلك اطمأن الانجليز الى انهم قطعوا الطريق على محمد علي، وصار محاصراً بين اسطولهم في البحر المتوسط واسطولهم في المحيط الهندي.

قامت القوات البريطانية باحتلال جزيرة بريم عند مدخل البحر الاحمر، وفي عام ١٨٣٩ ارسلت بريطانيا ثلاث سفن حربية استولت على عدن بالقوة، وارغمت سلطانها على توقيع اتفاقية بالخضوع للانجلين، تلتها مجموعة من الاتفاقات الاخرى مع الامارات الداخلية تحولت مع مرور الزمن الى معاهدات حماية، وقد قسمت هذه المنطقة الى الاقسام التالية:

أ - مدينة عدن والمناطق المحيطة وكان يطلق عليها مستعمرة التاج.

ب - المحميات الغربية وتشمل ثمانية عشرة سلطنة، منها لحج، العوازل الضالع..

ج - المحيمات الشرقية، وتتألف من ثمان سلطنات منها حضرموت، والكثيري والواحدي وسوقطره.

السياسة الاستعمارية في الجنوب العربي:

قسمت بريطانيا الجنوب العربي الى عدة وحدات سياسية ليسهل حكمها، وعينت ممثلا لحاكم عدن في المحميات الغربية وآخر في المحيمات الشرقية، والحقت تلك المحميات جميعها بحكومة الهند ثم ربطتها بوزارة المستعمرات وعقدت معاهدات مع السلاطين والشيوخ، فرضت عليهم التبعية والحماية البريطانية وحددت معونات سنوية قليلة جدا.

اهملت بريطانيا التعليم، وفرضت اللغة الانكليزية، واكثرت من الجاليات الأجنبية لاضعاف سيادة الجنس العربي، وجعلت من الموقع الجغرافي الممتاز محطة في عدن وقاعدة بحرية وجوية لبسط نفوذها على الخليج العربي.

المقاومة العربية:

زحف الجيش العثماني من اليمن الى لحج بطلب من سلطان الحواشب، وهاجم العثمانيون والعرب المراكز البريطانية في لحج سنة ١٨٧٣، ووضع سلطان زائده حصته في الحوطة تحت تصرف الجيش العثماني، فتنصل من معاهدة الحماية البريطانية، ثم ان القوات العثمانية اضطرت للانسحاب لمحاربة الجيش الروسي الذي اعتدى على الاراضي العثمانية، فزحف الانجليز الى الزائده وضموها الى سلطنة لحج سنة ١٨٧٨.

الاستعمار البريطاني في مصر

بدأت انكلترا تتطلع الى احتلال مصر، منذ مجيء الحملة الفرنسية فقد نزلت قواتها في مصر وساعدت العثمانيين في طرد الفرنسيين، غير انها ابقت قواتها في مصر حتى عام ١٨٠٣ على امل السيطرة على مصر ولما تسلم محمد علي السلطة في مصر ارسلت

حملة عسكرية بقيادة فريزر لاحتلال مصر سنة ١٨٠٧، فاحتلت الاسكندرية ولكن الحملة فشلت لاصرار المصريين على مقاومتها بكل شجاعة.

ولم يتوقف تدخل بريطانيا في شؤون مصر، فعندما حاول محمد علي اقامة دولة عربية لجأت الى التدخل، واوقفته عند حدود مصر، وذلك بمقتضى معاهدة لندن عام ١٨٤١، وقضت على الآمال العربية في اقامة دولة عربية مستقلة.

التنافس الفرنسي الانكليزي في مصر

منذ عهد محمد علي كانت فرنسا وبريطانيا تتسابقان على السيطرة على مصر، فكانت فرنسا ترغب في شق قناة برزخ السويس وتصل بين البحر المتوسط والبحر الاحمر للسيطرة على طرق المواصلات المصرية لتربط مصير التجارة المصرية بالتجارة في بلادها، ولتسيطر على طريق التجارة بين الشرق والغرب، وكانت بريطانيا تعيق تحقيق هذا المشروع خوفاً على مصالحها في الهند، ولكنها كانت ترغب في اقامة خط حديدي بين الاسكندرية والسويس عن طريق القاهرة.

رفض محمد علي حفر قناة السويس الا بأموال عربية حتى لا تكون بوسفوراً آخر، وبقيت مصر مسرحاً للتنافس الاستعماري الفرنسي الانكليزي في عهد عباس وسعيد، وقد استطاعت بريطانيا ان تحصل على امتياز سكة حديد الاسكندرية ـ السويس في عهد عباس، ونجح الفرنسيون ايام سعيد باشا تنفيذ مشروع قناة السويس.

مشروع قناة السويس:

اعطى الخديوي سعيد لصديقه فرديناند دولسبس الامتياز بانشاء قناة السويس وفق الشروط التالية.

- تنشأ شركة عالمية لحفر قناة بين البحرين، وتكون هذه الترعة ملكا لها تتصرف بها كما تشاء، وتعفى الشركة من الرسوم الجمركية.
- تقدم الحكومة المصرية ٥/٤ العمال باجور تحددها الشركة نفسها.
- تأخذ الحكومة المصرية ١٥٪ من ارباح الشركة.
- تكون مدة امتياز السنة ٩٩ سنه.

بديء بتنفيذ المشروع عام ١٨٥٩، وتحملت مصر اكبر قسط من نفقاته، واشترت ١٧٧٦٤٢ سهماً من ٤٠٠ الف سهم.

جرت القناه الويلات على مصر ادى الى احتلال بريطانيا لمصر، وسيطرتها على قناة السويس.

عهد اسماعيل:

حاول اسماعيل تكوين دولة قوية، ولكنه اخطأ السبيل باعتماده على عناصر مشبوهه من الانكليز، كون جيشاً قويا قوامه مائة الف محارب واسطول قوي، وكون امبراطورية ضمت السودان ووصلت الى جزر وميناء زيلع على المحيط الهندي (في الصومال).

واقام حركة تعليمية واسعة، فارسل البعثات العلمية الى اوروبا، واشاد المنشآت العمرانية والقصور، واندفع في انشاء القصور، واقامة الحفلات وتقديم الهدايا فاضطر الى الاستدانه.

بدأ الخديوي اسماعيل يستدين لسد العجز الذي نتج عن تبذيره،وبلغت الديون حوالي ٩٨ مليون جنيه اي حوالي عشرة اضعاف ميزانية مصر،فاضطر الخديوي اسماعيل الى بيع نصيب مصر من اسهم قناة السويس لانجلترا لتسدد فوائد القروض.

استعان الخديوي اسماعيل بالاجانب لمعاونته في اصلاح الحالة المالية في البلاد، لكنهم استغلوا هذه الفرصة للتشهير بسمعة مصر المالية، مما دفع الدائنين والحكومات الاوربية الى المطالبة بالاشراف على مالية مصر ضمانا لسد الدين، فوافق الخديوي على انشاء صندوق الدين وهو ادارة لشؤون الدين معظمها من الاجانب، ثم قبل تعيين مراقبين ماليين احدهما انكليزي والاخر فرنسي، ثم وافق الخديوي على تعيين وزيرين اجنبيين في الوزارة المصرية احدهما انجليزي والاخر فرنسي،واطلق المصريون على الوزارة الوزارة الاجنبية.

لجأت الوزارة الاجنبية (وزاة نوبار الارمني) الى ضغط مصروفات الدولة، فاحالت ٢٥٠ ضابطاً مصريا على التقاعد، وتأخرت في دفع استحقاقاتهم وضايق الوزراء الاجانب الموظفين المضربين، وتدخلوا في عملهم.

قام الضباط المتقاعدون بمظاهرة امام وزارة المالية، مطالبين باعادتهم الى الجيش ودفع رواتبهم، وضربوا رئيس الوزراء، ووزير المالية،فاقال الخديوي اسماعيل الوزارة فساءت الاوضاع المالية في البلاد، وازداد تدخل بريطانيا واخيراً استطاعت بريطانيا اقناع السلطان العثماني على اصدار مرسوم بعزل الخديوي اسماعيل،وتعيين ابنه توفيق سنة ١٨٧٩.

الثورة العرابيه:

تنبه الزعماء الوطنيون لسوء حالة البلاد، وتدخل الاجانب وسيطرتهم على امور الدولة، واخذوا يجتمعون لبحث حالة البلاد، وما وصلت اليه وما يجب عليهم عمله، ولما تسلم توفيق الحكم، ساءه علاقته مع الوزارة والشعب، لانه اتبع طريقة الحكم المطلق، وسمح بعودة المراقبة الاجنبية الثنائية، وكان لهذه المراقبة حق التفتيش على جميع مصالح الدولة، ومراجعة حساباتها، وقد استطاع المراقبان الانكليزي والفرنسي فرض ارادتهما على الحكومة، وبيع حصتها من ارباح قناة اليويس السنوية ١٥٪ بمبلغ بخس ٨٤٨٦٥٠ جنيه.

وافق الخديوي على تكوين لجنة لتصفية الديون من الاجانب، وقررت اللجنة تقسيم ايرادات الدول الى قسمين، قسم تتصرف به الحكومة المصرية لشؤونها يصرف على الخدمات والمصالح العامة وقسم يخصص لتسديد اقساط الدين.

ازداد تدخل الاجانب في مصر، وغزت المؤسسات الاوروبية المالية والاقتصادية ارض مصر، فانشات شركات لتكرير السكر، والمصرف العقاري، وغيرها من الشركات، وكانت تتمتع بامتيازات اجنبية كثيرة، فاصبحت مصر مرتعا للاجانب يسرحون ويمرحون، فادرك الشعب المصري ما يراد بوطنهم من شر، وازداد شعور المواطنين بحقوقهم واستعدادهم للمطالبة بحقوقهم.

وقد ساعد على ازدياد نقمة الشعب اضطهاد الضباط المصريين وعدم ترقيتهم، وعدم انتظام دفع رواتب الجيش، وتسريح العديد من الضباط العرب، وحصر الترفيع بالضباط الاتراك والشراكسه.

طالب بعض الضباط العرب بانصافهم، وعزل وزير الحربية التركي، فاعتقل الضباط المصريون، وحولوا الى مجلس حربي لمحاكمتهم، الا ان رجال الجيش المصري اقتحموا المحكمة وساروا في مظاهرة الى قصر الخديوي، وطالبوا بعزل وزير الحربية.

دستور ١٨٨١

طالب الجيش باقالة الوزارة، واعادة الحياة الدستورية والدعوة الى انتخاب مجلس نيابي وزيادة عدد افراد الجيش الى ١٨ الف جندي وفقاً لاتفاقية لندن سنة ١٨٤١، فاستقالت الوزارة، واجريت الانتخابات لمجلس النواب سنة ١٨٨١.

طالب مجلس النواب باخضاع ميزانية الدولة للمناقشة، مع احترام التزامات

الحكومة فيما يتعلق بالديون، فاحتجت بريطانيا وفرنسا على مجلس النواب وعرضتا المساعدة ضد المجلس.

شكل محمود سامي البارودي وزارة ثورية تولى احمد عرابي وزارة الدفاع، وقدم مشروعاً اصلاحياً شاملا، واقترح تعديل الفقرة الخاصة بالميزانية من الدستور، بشكل يجعل للمجلس حق النظر في الميزانية باستثناء قسمها المخصص لوفاء الدين قطعا لدابر التدخل الاجنبي، في الشؤون الداخلية المصرية، فاقر المجلس الدستور سنة ١٨٨٢.

لم ترض انجلترا وفرنسا عن هذه الوزارة واخذتا تحيكان الدسائس لاسقاطه.

الغزو البريطاني:

كانت بريطانيا تتطلع لاحتلال مصر منذ أمد بعيد، وعندما وضع عرابي الامور في نصابها، خافت بريطانيا ان تفلت مصر منها، ولم ترض عن وجود العرابيين في الحكم، فارسلت بريطانيا اسطولها الى مياه الاسكندرية في مظاهرة بحرية لارهاب الحكومة الوطنية، وكسب ثقة الخديوي والضغط عليه لطرد وزارة احمد عربي باشا.

وقد اثارت بريطانيا فتنه مفتعلة في الاسكندرية بين المصريين والاجانب،فقد اوعزت بريطانيا الى احد رعاياها بخلق هذه الفتنة، فقام بريطاني بقتل احد المصريين، فادى ذلك الى هياج الاهالي واشتباكهم مع الاجانب، فاتخذت بريطانيا هذه الحادثة ذريعة للتدخل بقصد حماية الاجانب ومساعدة الخديوي في حفظ الامن.

انذر القائد البريطاني في عام ١٨٨٢ الحكومة المصرية لتسليم قلاع الاسكندرية، ولكن الانذار رفض، وبدأ قائد الاسطول الانكليزي بقصف مدينة الاسكندرية واحتلها بعد مقاومة باسلة، وتقدمت القوات البريطانية نحو القاهرة،وولكن القوات المصرية ردتها على اعقابها في غرب الدلتا عند كفر الدوار، عدل الانجليز خط سيرهم، واتجهوا نحو قناة السويس، وحاول عرابي ردم قناة السويس الا ان فرديناند دلسبس خدع عرابي وتعهد بعدم السماح لبريطانيا باستخدامها لانها قناة دولية محايده.

عبر الاسطول الانجليزي القناة ضاربا بحيادها عرض الحائط، ونزلت القوات الانجليزية في الاسماعيلية، وزحفت نحو القاهرة، حيث اشتبكت مع العرابيين في معركة التل الكبير، فانهزم المصريون لخيانة بعض الضباط.

ودخل الانجليز القاهرة، وفي ركابهم الخديوي توفيق، وكانت بريطانيا قد نجحت في

حمل السلطان العثماني على اصدار بيان يعلن فيه «ان عرابيا ورفاقه عصاة وخارجون على الدولة العلية» فحوكم العرابيون ونفوا خارج البلاد.

الحكم البريطاني:

ادعت بريطانيا انها جاءت لدعم سلطة الخديوي، في وجه الثوار العرابيين الذين اثروا الفتنة في البلاد، ووعدت ان تسحب قواتها حالما تستقر الأوضاع الامنية في مصر، الا ان بريطانيا بدأت تسيطر على مقاليد الأمور في البلاد، وتوجهها التي تخدم مصالحها، واصبح المعتمد البريطاني صاحب الكلمة الاولى في تسيير دفة الحكم.

عقدت بريطانيا محكمة عسكرية حكمت على عرابي وصحبه بالاعدام، ثم خففت الحكم الى النفي المؤبد خارج البلاد، وسيطرت على مقاليد الامر في مصر سياسياً واداريا وعسكريا واقتصاديا واجتماعياً.

بادرت بريطانيا الى حل الجيش المصري، وشكلت جيشاً صغيرا لا يزيد عدده عن تسعة الاف رجل، وعينت جميع الضبط من الانكليز، كما شكلت قوة من الشرطة، وجعلت رئيسها انكليزيا، واستخدمت هذه القوة في قمع كل حركة وطنية واعتقلت الاحرار، وكتمت انفاس المصريين بحجة حفظ الامن.

حرصت بريطانيا على ابقاء الخديوي ووزرائه ليكونوا اداة تنفيذية في يد المعتمد البريطاني، فكان الخديوي يخضع خضوعاً تاماً للانكليز، يتلقى الخطة السياسية من المعتمد البريطاني، واما الوزراء فقد اصبحوا طوع ارادة الخديوي الذي استخدم الحكم المطلق، وكان عليهم ان ينفذوا الاوامر التي تصدر اليهم بناء على وحي المعتمد البريطان وتعليماته.

وابقت بريطانيا على التقسيمات الادارية السابقة، وعين الى جانب كل وزير مستشار انجليزي يملي عليه اوامر المعتمد البريطاني، واصبحت معظم الوظائف الهامة بيد الموظفين الانجليز، والحقت قوات الشرطة في المديريات المختلفة بوزارة الداخلية، وربطت بمفتش الوزارة العام الانجليزي الجنسية.

والغت بريطانيا دستور سنة ١٨٨٢، وحلت مجلس النواب المصري، وانشأت هيئتين لا سلطة لهما، هما مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية، وكان الخديوي يعين غالبية

وربط الانكليز الاقتصاد المصري بعجلة الاقتصاد البريطاني، وركزت بريطانيا على النواحي التالية:

- العناية بتنمية الانتاج الزراعي وبخاصة القطن، لتزويد المصانع الانكليزية بهذه السلعة، وجعل مصر اقليما زراعياً في خدمة الصناعة البريطانية، وقضت السياسة الاقتصادية الجديدة على زراعة التبغ كي لا تنافس التبغ البريطاني.
- اهمال الصناعة في مصر كي تصبح سوقاً لصناعة بريطانيا.
- فتح ابواب البلاد امام الشركات ورؤوس الاموال الاجنبية لاستثمارها في اقامة المصانع، والاتصال البرقي، وشركات الاراضي، والمواصلات.
- لم يهتم الانكليز بالتجارة الا بالمقدار الذي يكفي لسهولة تصدير المواد الاولية الى بريطانيا واستيراد المواد المصنوعة منها.

ورسم الانكليز سياسة تعليمية تحد من توسعه، وتركز على اهمال الثقافة العربية، كاهمال تدريس التاريخ واللغة العربية والدين الاسلامي، وركز التعليم على تخريج الموظفين والحد من روح الأبتكار لدى الطلاب، وقتل روح القومية العربية، وجعل اللغة الانكليزية هي اللغة الرسمية في البلاد.

ولجأ البريطانيون الى سياسة التفرقة بين ابناء الامة وطوائفها، كي يشتت جهودها، ويحول دون اتحادها وجمع كلمتها.

الحركة الوطنية:

انتعشت الحركة الوطنية برجوع معظم الاحرار المصريين من الخارج واخذت هذه الحركة تنظم صفوفها، وتستقطب الناس حولها، فوجدت تأييداً كبيرا، وتزعم مصطفى كامل الحركة الوطنية.

اخذ مصطفى كامل ينشر قضية مصر، ويشرحها في الجرائد والمجلات ولا سيما اثناء وجوده في فرنسا، فلقيت دعوته تأييداً واسع النطاق، وركز في دعوته على تحرير بلاده من الحكم الانجليزي.

اسس مصطفى كامل جريدة اللواء عام ١٩٠١ لتكون لسان الحركة الوطنية، وفي عام ١٩٠٧ اسس الحزب الوطني الذي ضم عناصر كثيرة من الشعب المثقف، وكان برنامج الحزب يهدف الى:

- استقلال مصر
- اصدار دستور للبلاد، واقامة حياة مجانيه

- نشر التعليم وجعله مجانيا.
- النهوض بالحياة الاقتصادية والصحة.
- تقوية العلاقات بين مصر والدولة العثمانية.

ايدت الحكومة الفرنسية حركة مصطفى كامل بسبب منافستها لانجلترا، ولكن التاييد سرعان ما زال اثر توقيع الاتفاق الودي بين بريطانيا وفرنسا سنة ١٩٠٤ .

حادثة دنشواي:

في عام ١٩٠٦ عرج بعض الضباط على الانكليز على قرية دنشواي ليصيدوا الحمام في ابراجها، فحاول الاهالي منعهم، ولكن الانكليز اطلقوا النار على الاهالي، واحرقوا محصول القمح فثار الاهالي وهاجموا الضباط الانكليز، هرب الانكليز فاصيب احدهم بضربة شمس، وتوفي متأثرا بها وفقاً لرواية الطبيب الشرعي الانجليزي.

حاكم اللورد كرومر «المعتمد البريطاني» اهالي القرية وحكم على اربعة رجال بالاعدام، وصدرت احكام الاشغال الشاقة المؤبدة على البعض، في حين جلد معظم السكان.

استغل مصطفى كامل والحزب الوطني على هذه الواقعة، في التشهير بظلم وقسوة الاحتلال، وطاف مصطفى كامل في اوروبا يندد بالاحتلال، الا ان الزعيم مصطفى كامل انتقل الى جوار ربه، ولم يطل عمره لمتابعة رسالته التحريرية.

محمد فريد:

تزعم محمد فريد الحزب الوطني، بعد وفاة مصطفى كامل، وزار الدول الاورلية شارحاً القضية المصرية، لكنه اعتقل اثر مقتل رئيس وزراء مصر «بطرس غالي» وبعد خروجه استأنف الجهاد ضد الاحتلال وظل يكافح من اجل بلاده الى ان وافته المنيه سنة ١٩١٩.

اعلان الحماية على مصر:

عندما اعلنت الحرب العالمية الاولى ووقفت تركيا الى جانب المانيا، فاعلنت انجلترا الحماية على مصر سنة ١٩١٤، واعتقل الانجليز زعماء الحركة الوطنية، واعتقدوا انهم باعتقالهم قضوا على الحركة الوطنية، وانها لن تعود، بيد انها ما لبثت ان عادت اشد واقوى بعدما تطورت تطوراً استوجبته ظروف الحرب وما صاحبها من ظهور مبادىء ولسون الرئيس الامريكي.

السودان:

تم فتح السودان في عهد محمد علي، وتوسعت مصر في الفتوحات في عهد الخديوي اسماعيل، فوصلت املاكها خط الاستواء وشرق افريقيا.

عملت الادارة المصرية على اصلاح احوال السودان، فانشأت حكومة قوية تتبع الحاكم في مصر مباشرة، واسست مدينة الخرطوم لتكون عاصمة البلاد، واشركت العناصر الوطنية في الحكم والادارة، واصلح محمد علي نظام القضاء وادخل القوانين العثمانية ليحل محل التقاليد القبلية.

وفتحت المدارس، وزاد عددها في عهد اسماعيل، وطور محمد علي الزراعة، وارسل بعض الفلاحين المصريين الى السودان للمساهمة في تحسين طرق الزراعة، ومد الخديوي اسماعيل السكك الحديدية وشبكة مواصلات تلغرافية.

وحاربت الادارة المصرية في السودان تجارة الرقيق، وقضت عليها، الا ان سوء الاوضاع المالية في عهد الخديوي اسماعيل انعكست على اوضاع السودان ايضا فانتشرت الرشوة بين الموظفين،واحتكرت الدولة تجارة بعض السلع، مثل العاج، وزادت الضرائب، واثقلت كاهل السودانيين، فساءت الحالة الاقتصادية في البلاد.

وزادت الاوضاع سوءا عندما لجأ الخديوي اسماعيل الى الاستعانة بموظفين اوروبيين، فتضايق السودانيون، وجعلهم يأنفون لحكام غير مسلمين، كما ان كبار تجار الرقيق لم يرضوا عن الغاء تجارتهم، لان الحكومة المصرية لم تجد بديلا وسبيلاً اخرى للرزق، فاخذوا يتربصون بالادارة المصرية.

الثورة المهدية:

هيأت الظروف السابقة لاستقبال دعوة الشيخ محمد احمد المهدي،كما ان ثورة عرابي الهبت حماس الناس، فانضموا الى حركة المهدي، وتمكنت المهدية من طرد القوات المصرية، واقامة دولة مستقلة في السودان، بل وحاول المهديون تحرير مصر من الاحتلال الانكليزي ولكن حملة المهديين فشلت في معركة كوستكى في بلاد النوبه سنة ١٨٨٩.

الاحتلال البريطاني:

تطلعت الدول الاستعمارية لاقتطاع اجزاء من السودان بعد اخلاء المصريين له اثر الثورة المهدية.

تطلعت بلجيكا الى مد نفوذها الى جنوب السودان، فوسعت مستعمرتها في الكونغو البلجيكي، لكن عبد الله التعايشى ارسل لهم حملة عسكرية اجبرتهم على الانسحاب الى قواعدهم في الكونغو سنة ١٨٩٣، وقام الايطاليون باحتلال كسلا.

اما الفرنسيون فقد ارسلوا حملتين، احداهما سارت الى فاشودة في الغرب، والثانية اتجهت الى الصومال لتحتل الاراضي الواقعة شرق فاشودة.

نجح الفرنسيون في احتلال الفاشودة وهزموا المهديين سنة ١٨٩٨.

وازاء هذه الاطماع الاوروبية في السودان قررت الحكومة البريطانية ان تسترد السودان بقوات مصرية يقودها ضباط انجليز، واستطاعت الحملة المشتركة بقيادة الضابط الانجليزي كتشنر ان تحتل ام درمان الشجاعة التي ابداها المهديون، فانهم لم يستطيعوا مقاومة التفوق البريطاني المصري في العدد والعدة، والاسلحة الحديثة والمحظور بعضها دولياً.

الحكم الثنائي في السودان:

انتهت الثورة المهدية، باحتلال كنتشز الخرطوم، ورفرف العلمين البرسطاني والمصري على سراي الحاكم ايذانا بقيام حكم ثنائي في السودان.

لقد فرضت الحكومة المصرية اتفاقية سنة ١٨٩٩ على السودان، وجعلت هذه المعاهدة من بريطانيا شريكالمصر في حكم السودان، وبموجب هذه الاتفاقية الغيت السيادة العثمانية على القطر السوداني.

وجاء في الاتفاقية «يعين الخديوي حاكم السودان بعد موافقة الحكومة البريطانية، ولا يفصل هذا الحاكم الا برضاء انجلترا، ويعاونه موظفون مصريون وبريطانيون والواقع انه لم يعد لمصر بمقتضى هذه الاتفاقية الا نفوذ اسمي فقط، لان الحاكم العام كان القائد للجيش في السودان وهو ضابط بريطاني.

انفردت انجلترا بحكم السودان، فاهملت التعليم والزراعة وامعنت في سياسة فصل جنوب السودان عن شماله وشجعت الارساليات الدينية الاوروبية في جنوب السودان رائدها في ذلك نشر المسيحية هناك والتفريق بين سكان السودان في الشمال والجنوب.

واهتمت بريطانيا بزراعة القطن، كما فعلت في مصر، من اجل تمويه مصانعها في لانكشاير.

وهكذا استأثرت بريطانيا بحكم السودان الفعلي تحت ستار الحكم الثنائي الذي لم تترك لمصر منه سوى الدور الثانوي، ولم تشركها في الحكم الا لتكبد خزينتها الاموال الطائلة للانفاق على المشروعات العامة فيه، بينما تستأثر هي بموارده الطبيعية وبخيراته الوافرة، فيكون «الغرم على مصر، والغنم للانكلين».

الاستعمار الايطالي

تطلعت ايطاليا للبحث عن المستعمرات بعد اكتمال وحدتها سنة ١٨٧٠ فاتجهت نحو ارتريا في اواخر القرن التاسع عشر، ثم لم تلبث ان احتلت ساحل الصومال سنة ١٨٨٩، وحاولت دخول الحبشه ولكنها هزمت في معركة عدوة سنة ١٨٩٦، فانتقلت بنشاطها الى ليبيا.

احتلال ليبيا:

مهدت ايطاليا لاحتلال ليبيا بفتح المدارس المجانية بطرابلس، وبنى غازي لتجذب اليها الليبيين، ودفعت بالمبشرين الى ليبيا لفتح مراكز الدعاية، فغصت البلاد بوسائل الدعاية الايطالية، وشيدت المستشفيات الايطالية، وكثرت البعثات الايطالية للتجارة، وكان بينهم المهندسون العسكريون فاستطاعوا وضع الخرائط الحربية وفتح بنك دي - روما واخذوا يشترون الاراضي الليبية الخصبة باثمان مغرية، واقراض الناس بشروط ميسرة نظير رهن الأطيان للبنك.

اخذت ايطاليا تتدخل في شؤون ليبيا الداخلية، واغتنمت فرصة ضعف الدولة العثمانية بعد سيطرة الاتحاديين، فانذرت الدولة العثمانية بالتخلي لها عن ليبيا سنة ١٩١١، وسرعان ما تقدم الاسطول الايطالي وقصف طرابلس، واحتلها، واضطرت القوات العثمانية الى مغادرة الاراضي الليبية بعد عقد معاهدة اوشى (لوزان) سنة ١٩١٢، والتي نصت على وقف القتال بين تركيا وايطاليا، واصدر العثمانيون فرمانا بمنح الليبيين الاستقلال الداخلي في الوقت الذي اعلن ملك ايطاليا ان ليبيا اصبحت جزءاً من الاراضي الايطالية [١]،توغلت القوات الايطالية في ليبيا بعد انسحاب الاتراك، ولكن المقاومة الليبية استمرت بعناد.

---

(١) احمد الشلبي موسوعة التاريخ الاسلامي ٤/٣٧٦

سياسة ايطالية الاستعمارية:

اتخذت ايطاليا سياسة استعمارية في ليبيا، فقد استولت على المزارع والبساتين والدور وسلمتها للطليان، ولجأت الى حرق المنازل وتخريب المساجد وتحويلها الى اسطبلات للدواب[1]، كما احتكرت التجارة والصناعة واسست المؤسسات الزراعية الايطالية لاستغلال الاراضي الليبية وتهجير الايطاليين الى ليبيا.

وركزت ايطاليا على طلينة السكان، وتعليمهم اللغة الايطالية، والقضاء على الثقافة العربية والاسلامية، ولم تسمح بحلقات العلم بالمساجد، وحصرت التعليم باقل عدد ممكن من الليبيين، وتعليم تاريخ الفاشيه.

وبلغت سياسة ايطالية ذورة العنصرية عندما سلبت الليبيين حريتهم، وجنسيتهم العربية، وجعلت ليبيا جزءاً من ايطاليا،فاعتبرت الليبيين ايطاليي الجنسية،ولكن من الدرجة الثانية، فمارست ضدهم سياسة التفرقة العنصرية، وحرمتهم من ارتياد مقاهي الايطاليين او الركوب في عربات يسوقها ايطاليون، ومنع العرب فتح النوادي او تأسيس الصحف، وغيرت اسماء الشوارع والميادين الى اسماء ايطالية،ووصلت فظاعة الايطاليين حدها عندما مارس الايطاليون حق اصطياد الاطفال بالرصاص دون ان يحاسبوا،والتركيز على تنصير السكان[1].

لم يستسلم الليبيون، فقام السنوسيون بتكوين فرق الجهاد بزعامة احمد الشريف السنوسي، وظل يسيطر على اقسام البلاد الداخلية،وهاجم الاراضي المصرية سنة ١٩١٥، الا ان مقاومته ضعفت بعد تعاون بريطانيا وايطاليا ضده، فغادر ليبيا الى انقره تاركا المقاومة بزعامة محمد ادريس السنوسي..

الاستعمار الاسباني:

كانت اسبانيا تطمع في ضم الساحل المراكشي منذ القرن الخامس عشر، فقد استولت انذاك على مليله، كما احتلت سبته سنة ١٦٤٠ وثبتت اقد امها في هذين الثغرين، كما اجبرت السلطان المراكشي سنة ١٨٦٠ على دفع الغرامة المالية سنويا بعد ان فشلت في المحافظة على احتلالها لمدينتي طنجه وتطوان.

وفي اواخر القرن التاسع عشر تدهورت اوضاع مراكش، فانتشرت الفوضى، وعمت الرشوة، وغلت الاسعار، وقامت المجاعات، وقامت الثورات، فتشجع السلطان على

(١) نقولا زيادة، ليبيا من الاستعمار الايطالي الى الاستقلال، ١١٧

الاستدانة من اسبانيا، فاخذت تتدخل في شؤون البلاد، وفرضت على السلطان معاهدة ١٨٩٧ اعترف فيها بنفوذ الاسبان في كل من سبته ومليله.

اتفقت اسبانيا وفرنسا سنة ١٩٠٤ على حق تصرف الاسبان في الريف المراكشي، على ان يتصرف الفرنسيون في الاجـزاء للباقيـة من مراكش، وفي عـام ١٩٠٩ احتل الاسبان مناطق استراتيجية في الريف، واجبروا السلطان سنة ١٩١٠ الموافقة على هذا الاحتلال، وفي عام ١٩١١ احتـل الاسبان العـرائش والقصر الكبير، واخيـرا فرضت اسبانيا الحماية على جميع الريف المراكشي سنة ١٩١٢، وفصلت بـين الاراضي التي تحتلها وبين الاراضي التي يحتلها الفرنسيون.

عينت اسبانيا مندوباً اسبانياً يدير شؤون الريف وكان عـادة يكون عسكـرياً، ومركزه تطوان، وقسمت الريف الى خمس مناطق ادارية، عين لكل منها مراقب يشرف على شؤون الامن في المنطقة، ويراقب تصرفات حكام المدن، كما اوجدت وزارة الداخليـة لمتابعة شؤون الامن وتتبعها شعبة المخابرات.

وشجعت اسبانيا هجرة الاسبان الى منطقة الريف حتى زاد عددهم عام ١٩٤٠ عن مئة الف اسباني، ولم تحاول اسبانيا منح المغاربة في الريف الجنسية الاسبانية او ان تمارس التمييز العنصري ضدهم بشكل واضح.

الفصل الرابع

ـ حركات الاصلاح واليقظة في الوطن العربي خلال القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الاولى.

١ ـ محاولات الاصلاح في الدولة العثمانية واثرها على الوطن العربي.

٢ ـ عوامل اليقظة العربية

٣ ـ حركات الاصلاح الاسلامية

- الوهابية
- السنوسية
- الجامعة الاسلامية
- المهدية

ـ حركة الاصلاح الوطنية العربية.

أ ـ الجمعيات الادبية والعلمية

- الجمعية السورية ١٨٤٧
- الجمعية الشرقية الكاثوليكية ١٨٥٠
- الجمعية العلمية السورية ١٨٥٧
- الجمعية التاريخية السورية في دمشق ١٨٧٥
- جمعية المقاصد الخيرية في بيروت ١٨٧٨

ب ـ الجمعيات السياسية

- جمعية بيروت السرية ١٨٧٥
- رابطة الوطن العربي في باريس ١٩٠٤.

ضعف الدولة العثمانيه

تعتبر سنة ١٦٨٣ (وهي السنة التي حاول فيها العثمانيون عبثا احتلال فينا)، بداية تقهقر العثمانيين بعد ان استمروا مدة اربعة قرون ينتقلون من نصر الى آخر، وازدادت بوادر الانهيار في القرن الثامن عشر، فاتخذت الدولة موقف الدفاع بدلا من الهجوم، ويرى المرخون ان بذور تدهور الدولة يكمن في البناء الاساسي للدولة، ذلك انها نظمت على اساس عسكري كان سبباً في تفكك الدولة وان كانت هذه العملية قد استمرت ثلاثة قرون قبل ان تتلاشى الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الاولى.

وسأحاول القيام بعرض سريع لعوامل ضعف الدولة العثمانية واسباب انهيار:

١ ـ فساد نظام الحكم

انتهى عصر السلاطين الاكفاء الاقوياء بموت السلطان سليمان القانوني، وتتابع على عرش الدولة العثمانية سلاطين ضعاف، انغمسوا في اللهو والترف[١]، واهملوا شؤون الدولة، فكثرت المفاسد والمؤامرات قال تعالى: «واذا اردنا أن نهلك قرية امرنا مترفيها، ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً»[٢]، وكثر النزاع على العرش، وظهرت عادة قتل السلاطين لابنائهم او اخوانهم خوفاً من منافستهم على العرش، كما انتشرت عادة حبس الامراء في مقاصير خاصة، وحرم عليهم الاتصال الخارجي، فكانوا يقضون حياتهم في صحبة الرجال الخصيان والحشم والجواري، فحرم هؤلاء من اكتساب خبرات الحكم، كما حرمت الامة من رجال قد يكونوا افذاذا قبل قتلهم[٣].

وتدخلت النساء في شؤون الدولة لتحقيق مصالحهن الخاصة، فقد خضع مراد الثالث لسيطرة اربع من السيدات هن والدته وزوجتاه وكبيرة وصيفات السراي[٤]، وكثرت مؤامرات النساء لعزل كبار الموظفين او تعيينهم وفق مصالحهن، وتزوج بعض الامراء من بنات اجنبيات، فافشين اسرار الدولة وتسبب ذلك في الهزائم المتكررة[٥].

---

(١) احمد الشلبي، موسوعة التاريخ الاسلامي، ٥/ ٨٧٠

(٢) الأسراء ايه ٥

(٣) علي حسون، تاريخ الدولة العثمانية، ٨٩

(٤) عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي، ١١٠

(٥) احمد الشلبي، مرجع سابق، ٥/ ٨٧١

وكانت المناصب تباع، فكان الموظف يشتري عمله مقابل مبلغ من المال، وسرعان ما يحاول استرداد ما دفع من الرعية بوسائل مختلفة [١] وانتشرت الرشوة بين الموظفين، واهملت المرافق العامة، وتعطلت المشاريع والاصلاحات.

٢ ـ فساد الانكشارية:

انشأ السلطان اورخان الجيش الانكشاري باختيار افراده من ابناء البلاد الاوروبية المفتوحة «ضريبة الدفشرمة» وتلقينهم مبادىء الاسلام، وتدريبهم على فنون القتال والحرب، وقد ابلى هذا الجيش بلاء حسناً، ثم اصابه الوهن، فاصبح الجيش الذي كان مصدر رعب اوروبا يخيف عاهلها ورعاياها [٢]، وصار الجنود والضباط يتدخلون في شؤون الدولة، وانغمسوا في الملذات، وفقدوا الانضباط العسكري، ووثب بعضهم الى مراكز قيادية في الدولة، وصاروا هم الآمرون الناهون، واصبح السلاطين العوبة بايديهم، يخلعونهم متى شاءوا، فخلعوا مصطفى الثاني، واحمد الثالث، ومصطفى الرابع وغيرهم، الى ان قيض الله للسلطان محمود الثاني التخلص منهم [٣] وسلط عليهم المدفعية فدمرتهم وانتهى أمرهم.

واعتمد العثمانيون على الجنود الاقطاعيين، ولكنهم ارتبطوا بالارض، وتهربوا من الخدمة العسكرية، فاعتمد العثمانيون على الجنود المرتزقة، فساروا على نهج قادتهم في الفساد والترف واللهو، وهكذا اصبحت القوات العثمانية سبباً من اسباب انهيار الدولة، وبخاصة لاشتراكهم في المنازعات المحلية، وتدخلهم في الشؤون السياسية وتخليهم عن واجبهم في حماية البلاد، وعلّ فساد القائد العثماني بلطه جي باشا مثلا على ذلك، ففي عهد السلطان احمد الثالث حاصرت الجيوش العثمانية بقيادة بلطه جي باشا القوات الروسية بقيادة القيصر بطرس الاكبر وزوجه كاترينا، فقامت الاخيرة باغراء القائد العثماني بالجواهر، واستمالته اليها، فرفع الحصار وضاعت فرصة القضاء على رأس الدول وربما على الدولة كلها [٤].

٣ ـ اتساع رقعة الدولة وعدم تجانس سكانها:

بلغت الدولة العثمانية اقصى اتساع لها في عهد السلطان سليمان القانوني، فبلغت

(١) فيليب حتى، مرجع سابق، ٤٤٦

(٢) احمد عبد الرحيم مصطفى، في اصول التاريخ العثماني، ١٣٧.

(٣) نفس المرجع السابق ١٤١.

(٤) علي حسون، تاريخ الدول العثمانية، ٨٩

مساحتها ١٤ مليون كم٢ [١] وامتدت املاكها في آسيا من بحر قزوين الى خليج عدن، وفي اوروبا وصلت املاكها الى فينا، فشملت بلاد العرب وبلغاريا والمجر ورومانيا واليونان، وفي افريقيا شمال شمال افريقيا، فكانت المساحة واسعة الأطراف، والمواصلات قليلة غير منظمة، وتعتمد على الدواب والعربات مما ادى الى صعوبة انتقال الجيش من منطقة الى أخرى في الحالات الضرورية.

وضمت الدولة شعوبا واممـا عديـدة، [٢] كالعـرب والبزابـرة والاكـراد والارمن والصقالبة واليونانيون والسلافيين، وكانت تختلف في اللغة والجنس والعادات والتقاليد والدين [٣]، الا ان الرابطة الاسلامية كانت تجمع هذه الشعوب الى ان ظهرت القوميات ونمت الحركات المطالبة بالاستغلال، ولا سيما في البلقان فكثرت الثورات منها:

- ثورة الاقطاعيين كالمعنيين والشهابيين في لبنان، وآل سيفا في طرابلس، وظاهر العمر في فلسطين، وعلي بك في مصر.
- الثورات الدينية، ومنها الزيديون في اليمن والوهابيون في نجد، وهناك ثورات الجيش الانكشاري، والاسرة القرمنليه.

التخلف العلمي والتكنولوجي:

عجز العثمانيون عن مجاراة التطور التكنولوجي في اوروبا عكس ما كانوا عليه في القرن الخامس عشر حين اقتبسوا المدفعية [٣] واهملوا التـطور الحضاري، وتشبثـوا بأفكارهم القديمة، وبقيت مدارسهم ومعاهدهم التعليمية دون تقدم، ولم ينصرفوا الى العمل، وانشغلوا بالفتوحات والحروب فعم الجهل والتخلف والفقر، ووقفوا عاجزين امام متطلبات الحضارة [٤]، وفي الوقت الذي اصاب العثمانيون التخلف كما اصاب شعوبهم، بدأ الاوربيون يأخذون باسباب التقدم العلمي، وتسخير التكنولوجيا لخدمتهم، فاخترعوا الاسلحة الحديثة، وطوروا الصناعة، وانطبق قول الله عز وجل «كيف وأن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم الا ولا ذمة» [٥] فظهروا على المسلمين العثمانيين بعد ان كانت لهم الغلبة.

---

(١) نفس المرجع السابق، ٨٧

(٢) فيليب حتى، تاريخ العرب، ٨٤٤/٣

(٣) احمد عبد الرحيم مصطفى، في اصول التاريخ العثماني، ١٣٨

(٤) عمر عبد العزيز، مرجع سابق، ١١٨

(٥) القرآن الكريم

وانعكس التخلف التكنولوجي على اقتصاد الدولة، فظل مستوى الزراعة بدائيا، والصناعة تقليدية، وكانت الصورة العامة للتجارة في حالة تدهور، فكثرت الازمات الاقتصادية، ولم يعد الدخل كافيا لتغطية نفقات الدولة من جيش وموظفين وقصر، فلجأت الدولة الى فرض الضرائب المرهقة على السكان.

ومما زاد الازمات الاقتصاد تدفق المعادن الثمينة من امريكا (بعد الكشوف الجغرافية) على شرق البحر المتوسط مما ادى الى انخفاض قيمة العملة العثمانية، وارتفاع تكاليف الحياة[1]، كما ان الدولة لم تهتم بالميزان التجاري.

الامتيازات الاجنبية:

قدمت الدولة العثمانية بعض التسهيلات البسيطة للدول الاوروبية بهدف اعادة الطريق التجاري الى البحر المتوسط، ثم منحت روسيا حق بناء الكنائس وحماية المسيحيين الارثوذكس بموجب اتفاقية قجق كينارجه، وفرنسا حق حماية الكاثوليك، وبريطانيا حق حماية البروتستنت، وتوسعت هذه التسهيلات فاصبحت تشمل الاعفاء من الضرائب والاستثناء من المحاكم العثمانية، ومنح القناصل حق النظر في الدعاوي التي يكون الاجانب طرفاً بها، وكان لهذه الامتيازات اثرها الخطير على الدولة، فاخذت الدول الاوروبية تحرض المسيحيين، والتدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية بحجة حماية الرعايا الاوروبيين[2]، كما كان لتلك الامتيازات اثرها على الولايات العربية، لانها جعلت للاجنبي مركزاً خاصاً يتميز به عن العرب اصحاب البلاد[3]، كما قضت على مبدأ الشريعة الاسلامية داخل دار الاسلام، واستغل نظام الامتيازات من قبل الدول الاوروبية كوسيلة من وسائل الاستعباد الاستعماري للاقطار العربية[4].

الحروب الخارجية:

بلغت الدولة العثمانية اقصى اتساع لها في القرن السادس عشر واصطدمت بحواجز لم تستطع اجتيازها، ففي الشرق واجه العثمانيون الصفويين فاخترقوا الحدود الايرانية، ولكنهم لم يستطيعوا الحفاظ على ما اجتاحوه، كما تصدوا للبرتغاليين ومنعوهم

---

(١) احمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ١٣٩.

(٢) عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي، ٨٥

(٣) محمد عبد المنعم الراقد، الغزو العثماني لمصر، ٣١٠

(٤) لوتسكي، تاريخ الاقطار العربية الحديث، ٢١

من التوغل في مياه البحر الاحمر والخليج العربي، وفي الغرب واجهت العدوان الروسي المستمر للوصول الى المياه الدافئة[١]، كما واجهت النمسا التي كانت طامعة في السيطرة على دول البلقان، وفي القرن الثامن عشر شرعت فرنسا وانكلترا تفتش عن مناطق النفوذ، فاتجهت بانظارها نحو ممتلكات الدولة العثمانية (الولايات العربية)، وأخذت تغتصب منطقة تلو الاخرى[٢].

ادت الحروب المستمرة الى استنزاف القوات العسكرية ثم انهيارها، وتدهور اقتصادها، وانهاك خزينتها بسبب الخسارة المستمرة في العدد الحربية، بالاضافة الى قتل اعداد كبيرة من القادة والجنود[٣].

اثر ضعف الدولة العثمانية على الوطن العربي:

لم يكن الحكم العثماني مباشراً في الوطن العربي، وكان ذلك من اهم العوامل التي حفظت للعرب مقوماتهم الاساسية، فكان الوطن العربي يشكل حينئذ وحدة واحدة داخل وحدة اسلامية كبيرة[٤]، فلم يكن هناك حدود سياسية فاصلة بين اجزاء الوطن العربي، اذ كان يستطيع الانسان الانتقال من مصر الى الحجاز والعراق والمغرب العربي او اي جزء اخر دون جواز سفر، فلا حدود سياسية ولا حواجز جمركية، ولا مشكلات تتعلق بالنقود، بل كان الحكم غير المباشر عند العثمانيين عاملا هاما في الحفاظ على المقومات العربية، من لغة وثقافة، ولم يكن لدى العثمانيين رصيد حضاري يذكر يقدمونه للعرب، بل انهم ضربوا حول الوطن العربي عزلة حرمته من التأثر بالتيارات الحضارية والفكرية الاوروبية، فاصاب الوطن العربي الجمود والتخلف الفكري والعلمي.

وانعكست مظاهر الضعف في الدولة العثمانية على تاريخ الولايات العربية، فاصبح سلسلة من الاضطرابات والانقسامات، فانقسم المجتمع الى عصبيات واحزاب، كالنزاع بين القيسية واليمنية في الشام، او بين البيوتات المملوكية مثل الفقارية والقاسمية في مصر[٥]، واصيبت نظم الحكم في الولايات بالانهيار، واصبحت مسرحاً للثورات الانفصالية والمنازعات العائلية والقبلية.

---

(١) احمد الشلبي، موسوعة التاريخ الاسلامية٥/ ٨٧٤

(٢) جلال يحيى، تاريخ العرب الحديث.

(٣) علي حسون، مرجع سابق، ٨٧

(٤) علي حسون، مرجع سابق، ٩١

(٥) عمر عبد العزيز عمر، مرجع سابق، ١٢٦.

وترتب على انهيار الحكم العثماني ان بدأت الاطماع الاستعمارية تمتد الى الولايات العربية، فاخذت الدول الاوروبية تفكر في اقتسام الوطن العربي، فاستولت فرنسا على الجزائر وتونس في القرن التاسع عشر، وبريطانيا على مصر والسودان والجنوب العربي والخليج العربي، وايطاليا على ليبيا، ثم جاءت الحرب العالمية الاولى فانهارت الدولة العثمانية، واقتسمت بريطانيا وفرنسا العراق وبلاد الشام، واعطيت فلسطين لليهود.

كما اصاب الوطن العربي التخلف الاقتصادي فطغت الصحارى على الاراضي الزراعية، واصاب الصناعة التخلف نظراً لكثرة الضرائب، وكسدت التجارة، وانتشرت الامراض لاهمال الشؤون الصحية، وشاعت الامية لقلة المدارس، واضطرب الامن، وتعرضت المواصلات لنهب البدو واللصوص، وتطلب الامر اصلاح الاوضاع في الدولة العثمانية.

محاولات الاصلاح في العهد العثماني

بدأت الدولة العثمانية تضعف بعد ان فشلت في احتلال فينا عاصمة النمسا سنة ١٥٢٩، واصبح التفوق المغربي يهدد وجودها ولا سيما بعد توالي الهزائم العسكرية التي منيت بها، في القرن السابع عشر، وقد شعر السلطان احمد الثالث (١٧٠٣ - ١٧٣٠) ان اوروبا قد سبقت العثمانيين في المجال العسكري والاقتصادي والسياسي والاجتماعي، وان عليه اقامة جيش يستطيع المحافظة على كيان الدولة، ففي عام ١٧١٩ ارسل بعثة الى فينا للاطلاع على مدى ما وصلت اليه من تقدم في المجال العسكري والعلمي هناك[١] لتطبيق ذلك في بلاده، وبهذا بدأت محاولات الاصلاح، واتخذت ثلاثة مظاهر:

١ - الاصلاح العسكري.

تبنى السلطان احمد الثالث بناء جيش على الطراز الاوروبي في التدريب والتسليح سنة ١٧١٩، وتابع السلاطين من بعده محاولة اقتباس ما امكن من النظم الاوروبية العسكرية، فقد حاول السلطان مصطفى الثالث تنظيم سلاحي المدفعية والبحرية معتمدا على الخبراء الاوروبين.

لمس العثمانيون فساد نظام الجيش الانكشاري. فطالب قاضي العسكر العثماني بتقوية الجيش واستقى حججه من الشريعة الاسلامية والتاريخ الاسلامي، فاتجه

(١) عمر عبد العزيز عمر، مرجع سابق ٢٤٥

السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ ! ١٨٠٧) الى انشاء جيش جديد (الشجمان أو النظام الجديد)[1] وافتتح المدارس العسكرية، وعين فيها ضباطاً فرنسيين للتدريس، كما أسس مصنعـا للبنادق، الا ان الجيش الانكشـاري تمرد وقتـل جميع المـؤيـدين للحـركـة الاصلاحية، وخلع السلطان، وحلت فرق الجيش الجديد البالغ عددها حوالي ٢٥ الف جندي.

تابع السلطان محمود الثاني محاولات اصلاح الجيش، فشكل فرق الاشكنجي (الجند النشيطين)، فتمرد عليه الانكشـارية، فعبـأ الشعب ضدهم، واتهمهم بـانهم استخدموا السلاح ضد المواطنين، واصدر امراً بالغاء الجيش الانكشاري، وتشكيل عسـاكر محمـد المنصورة، وقصف الجيش الانكشـاري بالمـدفعية، فقتلت (٣) آلاف انكشاري، في الثكنات، وعشرين الف في شوارع استانبول سنة ١٨٢٦ اثناء تمردهم[2]، وسميت هذه الحادثة بالواقعة الخيرية، وانشأ مدارس عسكرية لتدريب الجيش الجديد، واستعان بالضباط البروسيين مثل مولتكه، وارسل بعثات عسكرية الى اوروبا، واقيمت مدارس الرشيدية التي كانت مهمتها تقديم نموذج متقدم من التعليم للتأهيل، لدخول مدارس الجيش المختلفة من بحرية وطب.. وأسس وزارة الحربية، وجـريدة رسميـة (تقويم وقائع). وقام السلطان باستعادة سلطة الحكومة المركزيـة في الولايات، ونـظم البريد، والبوليس الوطني، وقضى على المماليك في العـراق سنة ١٨٣٠، وعـلى الأسرة القرمنلية في ليبيا سنة ١٨٣٥.

٢ ـ الاصلاح المدني والاداري

صدرت سلسلة من الاصلاحات الادارية والمدنية ما بين ١٨٣٩ ـ ١٨٧٨، ومن أبرز هذه التنظيمات:

آ ـ خط كولخانه سنة ١٨٣٩:

عندما تولى السلطان عبد الحميد اصدر مرسوم خط شريف كلخانه (حديقة قصر الفل) في جو حافل بالصلوات وضرب المدافع[3]. وشمل:

- احترام الحريات العامة والممتلكات بغض النظر عن المعتقدات الدينية والعنصرية، ومنح الرعية امنية الروح والعرض والمال.

---

(١) عبد الكريم غرايبة. تاريخ العرب الحديث ٢٤٣

(٢) عمر عبد العزيز عمر، مرجع سابق ٢٧١

(٣) جلال يحيى. تاريخ العرب الحديث ١٩٠

- مساواة جميع الأفراد امام القانون، وعدم عقاب اي مذنب دون محاكمة.
- القضاء على الرشوة التي كانت سائدة في الدولة لقلة الرواتب، ومنع شراء الوظائف، وحددت رواتب الموظفين.
- الغاء نظام الالتزام، وتحسين طرق جباية الضرائب، وتوزيعها بصورة عادلة على السكان.
- تنظيم التجنيد، وتحديد فترة الخدمة العسكرية.

وقد كان السلطان يرمي الى انشاء مجتمع يقوم على فكرة المواطنة اي ان يكون السكان مواطنين لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات.

ب - خط همايون ١٩٥٦:

نصحت بريطانيا وفرنسا السلطان عبد الحميد بضرورة متابعة الاصلاح، فاصدر برنامج اصلاح يسمى همايون(١)، اكد فيه على المساواة التامة بين المواطنين امام القانون دون تمييز، ومما جاء فيه(٢):

- اقرار امتيازات الطوائف غير الاسلامية، والسماح لها بممارسة شعائرها الدينية، وبناء معابدها، ومنع استعمال الالفاظ التي تحط من قيمة أهل الذمة.
- افساح المجال امام كافة رعايا الدولة المساهمة في خدمة الدولة عن طريق تعيينهم في الوظائف، واستفادتهم من خدمات الدولة التعليمية.
- انشاء محاكم مختلفة للفصل في القضايا المدنية والجنائية، اما دعاوي الاحوال الشخصية والأرث فتحال الى المحاكم الشرعية للمسلمين، والمحاكم الطائفية لأهل الذمة.
- تنظيم ميزانية الدولة، وتسجيل الايرادات والواردات في سجلات خاصة.

غير أن هذا الخط لم يقابل بالترحاب الكافي من المسلمين والمسيحيين، ذلك ان المسلمين وجدوا انه يعمل على مساواتهم مع اهل الذمة، أما المسيحيون فكانوا يهدفون

---

(١) عبد الكريم غرايبة، مرجع سابق: ٢٤٤
(٢) عمر عبد العزيز عمر، مرجع سابق: ٢٧٧

الى الاستقلال عن الحكم العثماني الاسلامي، فزاد التوتر بين الطرفين، وادى الى قيام فتنة ١٨٦٠ في لبنان[١]، وايدت فرنسا الموارنة، وبريطانيا الدروز.

جـ ـ قانون الولايات ١٨٦٤

صدر في سنة ١٨٦٤ قانون الولايات العثماني، قسم الدولة الى ولايات يحكم كل منها وال، كما قسمت الولاية الى سناجق يحكم كل منها سنجق دار (متصرف)، وقسم السنجق الى اقضية يحكم كل منها قائمقام، اما القضاء فقسم الى نواحي يحكم كل منها مدير ناحية، وصار لكل ولاية مجلس اداري يتألف من كبار موظفي الولاية، وقد ادى هذا القانون الى الغاء بقايا الاقطاع، وارتباط الولايات ارتباطا وثيقاً بحكومة المركز بالاستانة.

٣ ـ الاصلاح الدستوري

استمرت حركة الاصلاح بالرغم من معارضة بعض رجال الدين والباشوات، في حين انصرف السلطان عبد العزيز الى اللهو والتبذير، فاصبحت احوال الدولة سيئة، ومستقبلها يبدو قاتما، وارتفعت الوية العصيان في اقاليم البلقان، واخذت روسيا تهدد بالتدخل، ورغبت اوروبا باستمرار حركة الاصلاح، ولكن السلطان عبد الحميد قطع على الجميع عملهم[٢] لدى توليه السلطة، فعين مدحت باشا صدراً اعظم، واعلن دستوراً للدولة العثمانية سنة ١٨٧٦.

وقد جاء في المقدمة ان الدستور يهدف الى المساواة المدنية والسياسية لجميع العثمانيين، ويحدد مسؤوليات وواجبات الوزراء والموظفين، ويضمن استقلال المحاكم، وينص على تثبيت ميزانية الدولة، ويفرض تطبيق النظام اللامركزي في ادارة الولايات. ونص الدستور على تشكيل مجلس أمة يتألف من هيئتين، مجلس مبعوثان (نواب)، ومجلس اعيان، وقد تمت الانتخابات، وشكل البرلمان، وافتتح عام ١٨٧٧.

ويمتاز الدستور بأنه حدد صلاحية مجلس الوزراء ومسؤولياته تجاه مجلس البرلمان، كما حد من سلطة السلطان المطلقة، واباح حرية التعليم،

(١) جلال يحيى، مرجع سابق: ١٩٥
(٢) محمود المنسى، ٥٣

وجعله اجباريا، واعلن حرية النشر والصحافة، وجعل دين الدولة الاسلام، ولغتها الرسمية التركية، واعتبر جميع الرعايا عثمانيي الجنسية، وقد اقتبست مواد الدستور من دساتير بلجيكا وفرنسا، وانجلترا، وصيغ في مائة وتسعة عشرة مادة[١].

اضطر السلطان عام ١٨٧٨ الى تعليق العمل بالدستور بسبب عدوان روسيا على اراضي الدولة العثمانية، وبقي معلقا ثلاثين عاما.

الصعوبات التي واجهت حركة الاصلاح

واجهت محاولات الاصلاح التي قامت بها الدولة العثمانية صعوبات عديدة من جهات متعددة:

- قلة المتحمسين لحركة الاصلاح لاعتقادهم ان ما يؤخذ عن الشعوب الاخرى لا يتناسب والثقافة الاسلامية.
- حرص بعض المتنفذين على المحافظة على امتيازاتهم ولا سيما رؤساء العشائر، ورجال الدين المسيحيين الكاثوليك والارثوذكس وبخاصة قانون الولايات.
- عدم جدية السلاطين في القيام بالاصلاحات لكثرة المصاعب المالية.
- كثرة الثورات الداخلية في دول البلقان وبلاد الشام.
- تشجيع الدول الغربية الحركات الانفصالية، للضغط على الدولة العثمانية بمنح بلغاريا، واليونان الاستقلال.
- محاولة الدول الاوروبية انتزاع بعض الولايات العربية، كمحاولة ايطاليا احتلال ليبيا، واحتلال فرنسا تونس والجزائر، وبريطانيا مصر..

اثر محاولات الاصلاح على الوطن العربي

لا تزال الدولة العثمانية هدفاً لهجوم كثير من المؤرخين العرب، ذلك انهم يركزون على الجوانب السلبية، في حين اننا اذا قارنا الانظمة الحاكمة في الفترة التي فتح فيها العثمانيون الوطن العربي لوجدنا ان هناك للعثمانيين فضلاً كبيراً في حماية الوطن

(١) عمر عبد العزيز عمر، مرجع سابق: ٢٨٠

العربي من الاستعمار الاوروبي، وان العثمانيين حالوا دون سيطرة اليهود على فلسطين وسيناء[1]، كما انهم حموا المذهب السني من توسع الصفويين الشيعة، وكان من الطبيعي ان يعاني العثمانيون بما فيهم العرب من تدهور الوضع الاقتصادي لاستمرار اعتداءات اوروبا على الدولة العثمانية ولاستمرار محاولات الدول الاوروبية في انتزاع الوطن العربي من العثمانيين، وقد حاول العثمانيون القيام بسلسلة من الاصلاحات في مختلف الميادين، وقد انعكست على الوطن بما يلي:

- وضعت الدولة برامج حديثة للتعليم، الا أن هذه البرامج لم تطبق في جميع الولايات العربية، اذ انتشرت المدارس العسكرية في العراق كما انتشرت المدارس الابتدائية والرشيدية في ولايات سوريا، غير أن المدارس لم تؤسس في اليمن والحجاز.
- لم يطبق مبدأ المساواة على جميع السكان، فقد بقيت الخدمة العسكرية محصورة بالمسلمين، اما اهل الذمة فقد ظلوا يدفعون بدل هذه الخدمة، وظلت الوظائف الادارية والقضائية شبه محصورة بالمسلمين.
- زاد ترابط الطوائف المسيحية، وظلت الدولة الاوروبية تدعي حماية هذه الطوائف، اذ كانت تدعي فرنسا حماية الكاثوليك، وروسيا تحمي الارثوذكسي، وبريطانيا تحمي البروتستنت وتعطف على الدروز، كما ان الدول الاوروبية اخذت توسع من نفوذها في ولايات سوريا وغيرها من الولايات عن طريق المدارس التبشيرية.
- دخلت خدمة البريد الوطن العربي، وتحسنت المواصلات، فقد اسس خط حديدي بين يافا القدس سنة ١٨٨٢، ثم انتشرت الطرق الحديدية في سوريا والعراق بالاضافة الى خط الحجاز، ومد تراموای بين بغداد والكاظمية، ووسعت الموانيء الرئيسية.
- اعيد توطين العشائر في العراق، ووزعت عليهم الأراضي وسجلت في دوائر الطابو في العقد السادس من القرن التاسع عشر.
- أسست المطابع ولا سيما في ولايات العراق وسوريا، لطبع الكتب والجرائد الرسمية، منها جريدة الزوراء في بغداد، وجريدة سوريا في دمشق، وغيرها.
- الغى قانون الولايات سنة ١٨٦٤، الاقطاع العسكري، وحددت الرواتب وصلاحيات الحكام الاداريين من ولاة ومتصرفين، كما صرفت رواتبهم من خزينة الدولة، واصبح

(١) احمد الشلبي، موسوعة التاريخ الاسلامي

نظام الحكم مركزيا في الولايات مما أوجد مشكلة بين العرب والاتراك حول المركزية واللامركزية في الحكم.

- الغيت الرشـوة، وانتشر الأمان عـلى النفس والعرض والمـال في مختلف الولايات العربية.
- كان الاسلام دين الدولة، والجنسية عثمانية، واللغة الرسمية هي التركية، الا ان اللغة العربية كانت تدرس في المدارس الابتدائية، كما وجدت طريقهـا في المدارس التبشيرية والطائفية والخاصـة، لذلك انتشر تعليم الادب العربي بـين المسيحيين اكثـر من انتشاره بين المسلمين الذين ظلوا يرسلون أولادهم الى مدارس الحكومة العثمانية حيث باللغة التركية في المدارس الثانوية.

عوامل اليقظة العربية

يقصد باليقـظة العربيـة تنبه العـرب الى ماضيهم المجيـد، وادراكهم لواقعهم المتخلف، وتطلعهم الى احياء الماضي وتجاوز تخلف الحاضر من اجل بناء مستقبل افضل، فلقد احس العرب بضعف الدولة العثمانية وفساد ادارتها، وعجزها عن الدفـاع عن البلاد العربية امام المـطامع الاوروبيـة، الامر الذي دعـا العرب الى ان يفكـروا في واقعهم السيء، وضرورة الاعتماد عـلى انفسهم باحيـاء تراثهم وهـويتهم وشخصيتهم، ومن العوامل التي ساعدت على تنبه العرب ويقظتهم ما يلي:

١ ـ الحملة الفرنسية التي قادها نابليون على مصر والشام:

لقد نبهت الحملة العرب الى الاخطار الاستعمارية التي تحدق ببلادهم، واحدثت يقظة سياسية في مصر والشام بما حملته الحملة من افكار الثورة الفرنسية وحقـوق الانسان، وما اتاحته من صلة بين الشرق والغرب،الامر الذي ادى الى تسرب كثير من النظم والاساليب الاوروبية الى البلاد العربية، ولا سيما بعد بناء عدد من المؤسسات كالمجمع العلمي لدراسة بيئة مصر والمرصد، والمتحف، والمطبعة الحـديثة التي سـاهمت في طباعة ونشر الكتب العربية والاجنبية، والتي فتحت افاقاً جديدة امام العرب، ومما زاد اثر الحملة ادراك المصريين الى ما هم عليه من ضعف وتخلف في مختلف الميادين، وبين التقدم الذي وصل اليه الغرب في الميادين العسكرية والعلمية والاقتصادية.

٢ ـ اصلاحات محمد علي في مصر:

عندما تولى محمد علي حكم مصر حاول اقامة دولة عربية حديثة فيها، وبذل جهوداً كبيرة للقيام بنهضة فكرية وعلمية نشطة فاقتبس النظم والافكار الغربية في هذا الميدان، فقد اسس المدارس الحديثة، وارسل البعثات العلمية الى اوروبا، واستقدم العلماء للعمل في المؤسسات التعليمية المصرية، واسس مطبعة بولاق التي اخذت تطبع جريدة الوقائع المصرية، وشجع على تاليف الكتب وترجمة الكتب العلمية الاوروبية،فانشأ دار الألسن وعين رئيسا لها الشيخ رفاعة الطهطاوي، فاحسن ادارتها، واجاد ترجمة كتب في الهندسة والفنون الحربية الاوروبية والهندسة الجغرافية.

ولم يقتصر محمد علي في اعماله على مصر، بل قام ابنه ابراهيم باشا بفتح المدارس الابتدائية والثانوية في بلاد الشام، واسس الكليات العالية في دمشق وحلب وانطاكيه، فكان لجهود محمد علي وابنه اكبر الاثر في حركة اليقظة العربية في القرن التاسع عشر.

وخطت النهضة الفكرية خطوات واسعة، واندفع الاهالي في تأسيس المدارس فاسس المصلح العثماني مدحت باشا مجلساً للمعارف سنة ١٨٧٩ كان لنائب رئيسه الشيخ طاهر الجزائري الافضل الاكبر في تشجيع فتح المدارس.

وهكذا كان للمدارس سواء الحكومية، والكتاتيب او التبشيرية والأهلية الاثر الكبير في بعث التراث الاسلامي، وطباعة المخطوطات، وايجاد جيل من الادباء والشعراء والعلماء الذين ساهموا في النهضة الفكرية العربية.

٣ ـ الصحافة:

لعبت الصحافة دوراً بازرا في اليقظة العربية، فلم يكن يتم تعميم الثقافة الشعبية الا عن طريق الصحف والمجلات، فقد وجد الادباء والمفكرون في الصحافة منبراً ينشرون منه افكارهم السياسية والادبية والدينية، ومعالجة القضايا التي كانت تشغل الامة العربية في ذلك القوت، والى هذه الصحافة يعود الفضل في تكوين الراي العام العربي.

وكانت البلاد العربية تكمل بعضها البعض في ميدان الصحافة فقد كانت اكثر صحف مصر مثلا في اول عهدها بايدي السوريين واللبنانيين **الفارين** من الاستبداد التركي.

ومن الصحف التي ظهرت في القرن التاسع عشر، الوقائع في مصر، الاخبار في لبنان، الكوكب الشرقي، والاهرام في مصر، مرآة الاحوال والجوائب في الاستانه، دمشق في دمشق، الفرات في حلب، الشهباء في بيروت، الرائد في تونس، وفي العراق صدرت

جرائد رسمية هي الزوراء في بغداد، والموصل والبصرة.

عرفت الطباعة العربية في اوروبا في القرن السادس عشر، وفي الوطن العربي في القرن الثامن عشر، وطبعت الكثير من المخطوطات العربية القديمة في ليبزج ولندن،وباريس والقاهرة وبيروت،وساهم طباعة الكتب والمجلات والصحف بكثرة وقلة تكاليفها اقبال مختلف الفئات العربية على قراءتها، وكثرت المطابع العربية كمطبعة بولاق في مصر، ومطبعة العراق التي ادخلت الى البلاد سنة ١٨٩٦، ثم ظهرت في مصر المطبعة الوطنية في الاسكندرية، والمطبعة القبطية، وتتابع انتشار المطابع في مختلف البلدان العربية.

٤ ـ الادباء والمفكرون والمصلحون:

نجم عن ازدهار الحركة التعليمية الحديثة الحكومية والاهلية والاجنبية، ظهور الكتب والمؤلفات في اللغة وادابها والمعاجم، وظهور جماعة من الكتاب والمفكرين الذين عملوا على احياء التراث العربي الاسلامي، ونشر العلم وتنبيه الافكار، ودعوا الى اصلاح المجتمع والحكم، ومن المفكرين المشهورين:

○ عبد الرحمن الكواكبي

ولد في حلب عام ١٨٤٩، وتلقى علومه في الكلية الاسلامية، وبدأ حياته بالعمل بالصحافة والمحاماة، ثم عمل موظفا في الدولة وفتح مكتباً لتقديم المشورة القانونية والعون مجانا للفقراء، فلقب بابي الضعفاء، وقد كره الظلم وقاومه، فحكم عليه بالسجن، وحين اطلق سراحه غادر الشام الى مصر سنة ١٨٩٨ وزار الصومال وزنجبار واليمن.

كان الكواكبي يؤمن بمستقبل الاسلام والعنصر العربي[١] وقد عبر عن هذه الاراء في كتابيه طبائع الاستبداد، وام القرى.

نشر الكواكبي عدة مقالات في الصحف المصرية عن اسباب الاستبداد واثاره، وقد جمع هذه المقالات في كتاب اطلق عليه طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد..، وقد شن فيها حملة شعواء على الظلم والاضطهاد العثماني، ومن اقواله.. لو كان الاستبداد رجلا واراد ان ينتسب ويحتسب لقال، «انا الشر وابي الظلم، وامي الاساءة واخي الغدر، ووطني الخراب وعشيرتي الجهالة[٢]».

حلل الكواكبي مفاسد الدولة العثمانية في كتابه ام القرى، وانكر على السلاطين تلقبهم بالقاب الخلافة، كما حمل على نظام المركزية الادارية، وعلى تمييز الدولة بين

(١) محمود منسي، حركة اليقظة العربية، ص ٧٤

(٢) توفيق برد، تاريخ العرب الحديث، ١٧٧

المواطنين، وعلى تعيين ولاة الاقاليم من غير اهلها، ونادى بان العرب هم احرص الناس على الاسلام،وان مكه هي انسب مكان لتكون عاصمة الدولة الاسلامية، وان اللغة العربية وهي لغة القران يجب ان تكون اللغة الرسمية للدولة، ودعا الى مبايعة خليفة عربي من قريش في مكة"[1] وقال" ان العرب هم القادرون على تحقيق الوحدة الاسلامية وان الخلافة حق لهم دون غيرهم."

ركز الكواكبي على وجوب بذل جهود جدية لمكافحة الجهل المنتشر بين الجماهير وعلى استعادة العرب مكانتهم اللائقة ودورهم في تقرير مستقبل الامة الاسلامية ومصيرها، وايد فكرة الوحدة الاسلامية ووضع برنامجاً من اربعة عشر مادة تدعو الى اقامة نظام اتحادي لحكم المسلمين، واقامة خليفة عربي قرشي يكون حكمه مقصورا على الحجاز، لكنه يصدق على تولية السلاطين والامراء في بقية الاقطار الاسلامية، ولا يتدخل في الشؤون الداخلية للامارات وعلى الامارات ان تبعث منتخبين يؤلفون هيئة شورى عامة مركزها مكة تتولى شؤون السياسة العامة الدينية للاتحاد المقترح، وبهذا فالكواكبي اول زعيم عربي دعا الى النظام الاتحادي لحكم المسلمين.

○ مدحت باشا

كان واليا على العراق سنة ١٨٦٩، ثم عين واليا في دمشق بعد بضع سنين، وقد قام بعدة اصلاحات في العراق وسوريا كان لها اثر كبير في اثراء اليقظة العربية وتعزيزها وكانت فلسفة مدحت باشا في الحكم تقوم على الاسس التالية[2]

- المساواه بين رعايا السلطان.
- تركيز القوة الادارية والقضائية في يد رجال الحكومة.
- خلق الموظف الامين الذي يلائم بين مصالح الحكومة والرعية.
- اشراك الاهالي مع الادارات المختلفة في اصلاح امور البلاد.
- سد الثغرات التي ينفذ منها الاجنبي الى داخل الولايات.

لقد حاول مدحت باشا اقامة دولة تقوم على الحكم الدستوري والشورى، وقام بعدة اصلاحات في العراق وسوريا.

---

(١) جورج انطونيوس، يقظة العرب، ١٧١

(٢) عبد العزيز دوار، تاريخ العرب الحديث، ٤٠٥

ففي العراق بنى المدارس والمستشفيات، ووزع الاراضي على القبائل والعشائر العربية، ونظم الري، واقام المجالس البلا ية، ونشر الامن، وفي سوريا شق المواصلات، وبنى بعض المدارس، واطلق حرية الفكر، وشجع الكتاب والادباء، واصدر عـدداً من الجرائد في العراق وسوريا.

والواقع ان اعلام النهضة كثيرون، ويصعب التحدث عنهم جميعا، لذلك تحدثنا عن اثنين فقط لاثرهما في زيادة الوعي العربي، ولاختلاف اساليب عملهم ونشـاطهم، وسنذكر بعض الادباء الذين ساهموا في دعم اليقظة العربية مثـل ناصيف اليـازجي (١٨٠٠ ـ ١٨٧١) والذي صنف العديد من الكتب وبطرس البستاني (١٨١٩ ـ ١٨٨٣) وله مصنفات اهمها بلوغ الارب في نحو العرب، وقاموس «محيط المحيط».

واحمد فارس الشدياق (١٨٠٥ ـ ١٨٨٧) الذي انشأ صحيفة الجوائب،والف عدداً من الكتب في اللغة العربية، ومحمود شكري الالوسي وهو عراقي عالم واديب الف ما يربو على ٥٠ كتابا،والشاعر العراقي معروف الرصافي، والشيخ المصري رافع الطهطاوي وغيرهم وغيرهم..

وقـد شاهمت عـوامل اخـرى في نهضة العـرب ويقظتهم ولا سيمـا ما نشـره المستشرقون الاوروبيون من مخطوطات عربية، وتغلغل التأثيرات الثقافية بين العرب والاتراك، وتشجيع هذه التأثيرات للوعي القومي لدى المواطنين ممـا ادى الى تمسك العرب والاتراك بقوميتهما كما ان انتشار المكتبات العامة التي يسرت على العرب التردد عليها وقراءة المقالات التحررية في المجالات المختلفة، والاطلا ع على من ينشره الغرب من تراث عربي، زاد في نهضة العرب، وساهمت المكتبات في النهضة العربيـة، ومن هذه المكتبات المكتبة الظاهرية بدمشق، والمكتبة الشرقية في بيروت، ومكتبات خاصة كمكتبة الالوسي في بغداد.

٥ ـ انتشار التعليم والمدارس:

اهمل العثمانيون التعليم في البلاد العربية فانتشرت الامية بشكل واسع، ذلك ان المدارس العثمانية كانت محدودة وتركز على تخريج ما تحتاجه الدولة من موظفين، ولكن العرب لم يهملوا التعليم كلياً، فتحملوا هذا العبء، وكانت المدارس في البلاد العربي على قسمين هما:

أ ـ المدارس والمؤسسات التعليمية القديمة: وتشمل الكتاتيب لتعليم القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن، والمدارس الطائفية التي تشبـه الكتاتيب في تعليمهـا، وحلقات

المساجد الكبرى التي تدرس علوم الدين وعلوم اللغة، واشهرها الازهر في القاهرة والاموي بدمشق، والنجف في العراق، وزاوية جغبوب في ليبيا، والزيتونة في تونس، والقرويين في فاس، وقد حفظت هذه المدارس اللغة العربية من الانحطاط الى مستوى العامية وخرجت بعض العلماء الذين ساهموا في اليقظة العربية امثال الكواكبي والطباخ في حلب، والميداني النابلسي في دمشق، والالوسي في العراق، والجبرتي ومحمد عبده في مصر، ومحمد السنوسي في ليبيا.

ب - المدراس الحديثة: وكانت على انواع منها المدارس التبشيرية الاجنبية والمدارس الرسمية والاهلية.

بدات البعثات التبشيرية الاوروبية تتوالى على الوطن العربي منذ القرن السابع عشر، وقد قامت هذه البعثات بنشر ثقافتها، وتدريس شتى العلوم في المعاهد التي شيدتها، ووجهت عناية فائقة الى اللغة العربية، وطبع كثير من امهات الكتب العربية ومخطوطاتها، وكانت تهدف الى احداث صدع في الدولة العثمانية باذكاء روح الانفصال بين العرب والاتراك،وقد ساعدت هذه الكتب على تقوية الروح القومية.

وكانت المدارس التبشيرية منتشرة في لبنان بشكل خاص،ومن هذه المدارس كلية عزير للارسالية الكاثوليكية واصبحت فيما بعد الجامعة اليسوعية، والكلية السورية للارسالية البروتستانتية واصبحت اليوم الجامعة الامريكية، واسست المدارس الاهلية مثل مدرسة زغرتا وعين ورقة اللتان انشاتهما الطائفة المارونية، وكانتا تعتنيان بتدريس الادب العربي، وتخرج منهما ادباء كثيرون منهم ناصيف اليازجي وبطرس البستاني، والمطران يوسف الدبس الذي اسس مدرسة الحكمة،وتتابع تاسيس المدارس التبشيرية في مختلف اجزاء الوطن العربي، ففي العراق مثلا اوجد الآباء الكرمليون والدومنيكان عدداً من المدارس وكذلك أسست مدارس المعلمين في القاهرة وبيت جالا وغيرها.

حركات الاصلاح الاسلامية

ظهرت حركات الاصلاح الديني خلال القرن التامن عشر، وكانما راى المصلحون في اصلاح الدين صلاح السياسة، اذ الملاحظ انه كلما تصدع كيان الوحدة الاسلامية، وظهرت عليه علامات الضعف، اشتد المسلمون في طلب الاصلاح واقبال الناس عل الدين.

ويعد ابن تيمية (تقي الدين ابو العباس احمد بن عبد الحليم) من رواد حركات الاصلاح في الدولة الاسلامية، فهو اول من نبه المسلمين الى الفساد الذي وقعوا فيه، فدعا الى الرجوع الى الشريعة الاسلامية ممثلة في كتاب الله وسنة نبيه، فهما كافيان لبناء دولة قوية، اذا ما تمسك الناس بنصوصهما، لقيت دعوة ابن تيمية رواجاً كبيرا بين الناس، الا ان انشغال الناس بحرب التتار والصليبيين اضعف من فاعلية الدعوة، تم مضت بعد ذلك فترة ركود وجمود بين الناس،وكاد الناس ان ينسوا ابن تيمية وحركته لولا ان فيض الله لحركات اصلاحية اخرى بالظهور، كالحركة الوهابية والحركة السنوسية، والحركة المهدية وغيرها.

الحركة الوهابيه

نشأة محمد بن عبد الوهاب.

ولد سنة ١١١٥/١٧٠٣ في العيينة شمالي الرياض، ونشأ في بيت علم ودين، اذ كان ابوه عالما، فقيها، وقاضيا، وكان جده شيخ علماء نجد حفظ القران وهو في العاشرة من عمره، درس الفقه على ابيه على مذهب الامام احمد بن حنبل، ثم راح يطلب العلم من منابعه الاصلية، حيث كان ينزل على اهل العلم والعرفان، فذهب الى مكة حاجا وطالب علم، كما سار الى المدينة حيث جلس في حلقة الشيخ عبد الله بن ابراهيم من ال سيف، واخذ العلم من العلامة محمد المدني، ثم سافر الى البصره فقرأ على عدد من العلماء، وامتدت رحلاته الى بغداد وكردستان وهمذان، واصفهان، ودرس فلسفة الاشراق والتصوف، والتقى بعلماء قم في ايران، وعندما عاد تدارس مع ابيه علوم الدين، وامن بضرورة تغيير الحال المنحرف في تلك البقاع.

سافر الشيخ الى العيينه، فرحب به رئيسها عثمان بن حمد بن معمر، وعرض الشيخ على عثمان فكره، وحقيقة التوحيد وحدوده، فقبل عثمان الدعوة وامر الشيخ عثمان

باحياء الصلوات مع الجماعة، والغى الضرائب والرسوم التي كان يأخذها الامراء من الرعية، وقصر الضريبة على الزكاة، ولكن دعوة الوهابيه شوهت الى حاكم الاحساء فامر بقتل محمد بن الوهاب.

انجه محمد بن عبد الوهاب الى الدرعيه، فرحب به رئيسها محمد بن سعود بن مقرن، وقال «ابشر ببلد خير من بلدك، وابشر بالعزة والمنعة» فاجابه الشيخ «وانا ابشرك بالعز والتمكين لان من قام بنصرة الحق فهو منصور ومن عمل بكلمة لا اله الا الله وتمسك بها، ونصرها ملك العباد.

افكار محمد بن الوهاب:

تاثر ابن عبد الوهاب بحركة ابن تيمية، وبحركة ابن قيم الجوزيه[1]،وقد رأى في رحلته اشياء كثيرة بعيدة عن روح الاسلام، فكان الناس يؤمنون بالخرافات، ويقدسون الاولياء ويحجون الى قبورهم، ويتمسحون باضرحتهم، ويقدمون لهم النذور، ويستشفعون بهم لجلب المنفعة او دفع الضرر[2]،فكان اهالي نجد يقصدون قبر زيد بن الخطاب في الجبيلة يدعونه لتفريج الكرب، وكشوف النوب وقضاء الحاجات، وكانت في الدرعية قبور بعض الصحابة، وقد عكف اهل البلاد على عبادتها يصارت هذه القبور في صدورهم اعظم من الله خوفا ورهبة[3]

اعتبر الشيخ محمد بن عبد الوهاب ان الامور الآتية تبعد عن التوحيد وتقرب من الشرك وهي[4].

- دعاء غير الله في المصائب او دعاء غير الله مع الله.
- الاستغاثة اي طلب الغوث من غير الله.
- التوسل الى الله تعالى بالانبياء والصالحين، فهذا التوسل كأنه يحلف على الله بهؤلاء وليس ذلك مأثورا.
- الاستعاذة، اي لا يجوز الاستعاذة بشيء من المخلوقين او المخلوقات وتكون الاستعاذة بالله واسمائه وصفاته فقط.

---

(١) جلال يحيى، تاريخ العرب الحديث/المدخل ٨٩

(٢) عمر عبد العزيز عمر، تاريخ الشرق العربي، ٢١٣.

(٣) حسين بن غنام، تاريخ نجد ص ١١

(٤) احمد الشلبي، موسوعة التاريخ الاسلامي ص ٧/ ١١٤

● الحلف بغير الله فذلك ينافي التوحيد.

● زيارة القبور لدعاء الموتى وللشفاعة بهم، اما زيارة القبور للعظة والعبرة فهي مأثورة.

ومما يتصل بذلك عدم جواز بناء المساجد على القبور، ولا بناء القباب عليها، فهذا منكر يتوجب ازالته.

لقد نادت الوهابية في الرجوع الى القرآن والسنه، ومحاربة البدع المضلله، ومحاربة المتصوفين الذين احدثوا الطقوس كحلقات الذكر، وما يصاحبها في بعض الطرق من رقص وطرب، والايمان بما لهم من قدرة على الاتيان بالخوارق والمعجزات، وهاجمت الذين يرتادون المشعوذين لعمل التعاويذ، واستطلاع المستقبل.

وارتكزت الدعوة الوهابية على مبادىء رئيسه هي:

أ - التوحيد اي الدعوة الى الله وحده، والتعبد له دون شريك،والاعتماد على القران والسنة كمصدرين للشريعة الاسلامية[1].

ب - الجهاد: نادى بالجهاد المشروع في سبيل الله، ونشر عقيدة التوحيد الخالصة لوجه الله دون اشراك احد معه في العبادة.

ج - الاجتهاد، بالاعتماد على القرآن والسنة وآثار السلف الصالح، وانكر تقليد غير المذاهب السنه الاربعة.

اتبع الشيخ ابن عبد الوهاب مذهب السلف، واقرار ما ورد من الصفات الالهية في القرآن والاحاديث الصحيحة، والايمان بظاهره مع نفي الكيفية، وهو في هذا يتبع مذهب ابن تيمية ومذهب سلف الامة وائمتها الذي يقول أن نصف الله تعالى بما وصف به نفسه، وبما وصفه رسول الله صلوات الله عليه من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، فلا يجوز نفي صفات الله تعالى التي وصفها بها نفسه، ولا يجوز تمثيلها بصفات المخلوقين بل هو سبحانه ليس كمثله شيء في ذاته، ولا في افعاله»، وقد عبر الامام مالك عن راي السلف ادق تعبير عند تفسير قوله تعالى «الرحمن على العرش استوى» فقال الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والايمان به واجب، والسؤال عنه بدعة[2].

انتشار الحركة الوهابية:

حاول محمد بن عبد الوهاب تحويل مبادىء ابن تيميه الى برنامج سياسي، اذ رأى

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، تاريخ العرب الحديث والمعاصر

(٢) احمد الشلبي، مرجع سابق، ٧ ١١٣

ان لا أمل على الاطلاق ان يطلب العون والمساعدة من رجال الدين في استانبول، لانهم تحولوا الى موظفين رسميين جامدين، لا يميلون الى اي لون من الوان الاصلاح، كما انهم اصحاب ارزاق موصولة ومراكز مرموقة، فهل يجازفون بذلك في سبيل نظريات لا يؤمنون بها كثيرا، كما انهم لا يزيدون عن ان يكونوا الات يحركها سادتهم من العثمانيين فهم لهم ولا همّ لهم الا طاعة عمياء.

رأى محمد بن عبد الوهاب الاعتماد على سند سياسي يعزز مبادئه الدينية، ويدعم حركته الاصلاحية، فاستند باديء الامر الى عثمان بن حمد بن معمر امير العينية، الذي ايده في باديء الامر،ثم تخلى عنه خضوعاً لنفوذ حاكم الأحساء،فهاجر الى الدرعية حيث وجد الحماية والنصرة من اميرها محمد بن سعود، وتعاهد الرجلان على الجهاد والامر بالمعروف والنهي عن المنكر على اقامة الشعائر، ونشر الدعوة باللسان والسيف.

سعى الوهابيون الى اعادة مجد الدولة الاسلامية اعتمادا على الناحية الدينية، وأمنوا ان لا نجاة من اخطار الاستعمار المحدقة بالعالم الاسلامي، الا بالعودة الى بساطة الاسلام الاولي، والبعد عما هو اوروبي ينافي اصالة الاسلام[1] لقد نزع الوهابيون الزينة والحلي التي كانت تزين قبر سول الله ﷺ وهدموا بعض القباب.

ازر محمد بن سعود الدعوة الوهابية (السلفيه) وقام بنشرها بالحجة والاقناع، ودافع عنها الامير محمد بن سعود بالسيف، حتى استطاع احتلال الرياض، وعمت الحركة الكثير من مدن نجد وقراها.

وبعد وفاة الامير محمد خلفه ابنه عبد العزيز، الذي كان عالما بامور الدين، وتأصلت في نفسه روح الجهاد، والدعوة الى الله، وتابع سياسة والده، فضم قسما اخر من نجد، تم تخطى حدودها، فهاجم الاحساء، واستولى على القطيف، وسعى لنشر دعوة التوحيد في امارات الخليج العربي، ثم اتجه الى العراق، ووصل الى كربلاء، وعجب لوجود اموال وجواهر في مشهد الحسين، فهدم المشهد[2] لحرمة اقامة القبور في المساجد، واستثمر الاموال والجواهر لصالح المسلمين.

اغتيل الامير عبد العزيز فخلفه ابنه الامير سعود الكبير في حمل الدعوة، واتجه نحو الحجاز، الذي كان يحكمه الشريف غالب بن مساعد، وهو تابع الى الدولة العثمانية، فانهزم الشريف غالب، الا انه اقتنع بتبعيته للسعوديين.

---

(١) صالح المسي. حركه النهضة العربي. ٣٧

(٢) فيليب حتي تاريخ العرب. ١ ٨٧١

جدد السعوديون حملاتهم على العراق، فهاجموا النجف والزبير، ثم تقدمت قواتهم نحو الشام، حتى وصلت الى حوران.

مقاومة الحركة الوهابية:

انتشرت الدعوة الوهابية بين الناس، ولكنها وجدت بعض المعارضة، ولا سيما من العلماء خوفا على مصالحهم، كما اثارت قسوة الوهابيين اسف بعض المسلمين لهدمهم القباب والقبور، كما الهب العواطف ضد الحركة ان السلطات السعودية بالحجاز منعت حجاج الشام وتركيا ومصر من الدخول الى الارض المقدسة ابتداء من سنة ١١٢١.

ويذكر الجبرتي انه في سنة ١٢٢٢[١] «ان الوهابي نادى بعد انقضاء الحج الا يأتي الى الحرمين بعد هذا العام من يكون حليق الذقن، وتلا في المناداة قوله تعالى» «يا ايها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا»[٢].

شعرت الدولة العثمانية بخطورة هذه الحركة، لان نجاحها يفقدها زعامة العالم الاسلامي، وبخاصة اذا فقدت الحجاز والحرمين الشريفين، فاتهمت الدعوة الوهابية بالكفر والخروج على طاعة الخليفة، واوعزت الى العلماء المسلمين للتشهير بالحركة.

طلب السلطان العثماني من ولاته في العراق القضاء على الحركة، ولكنهم اخفقوا في ذلك، كما امر السلطان واليه على دمشق بالقضاء على الحركة فلم يكن احسن حظا من ولاة العراق، اذ عجز عن القضاء عليها، وتوترت العلاقات بين الامير سعود والسلطان العثماني، عندما طلب سعود من اميري الحج الشامي والمصري ان يحجوا هم ورجالهم كما حج رسول الله ﷺ اي بالتزام الاحكام الشرعية وتجنب البدع مثل الطبل والزمر واقامة الحفلات اثناء الحج، وفي العام التالي اعاد السعوديون الحجيج المصري والشامي لعدم امتثالهما لما دعوا اليه فكان ذلك ضربة اليمه لم يحتملها السلطان.

طلب السلطان من واليه على مصر «محمد علي القضاء على حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فتوالت حملات محمد علي على شبه جزيرة العرب ما بين سنة ١٨١١ - ١٨١٨، واصطدمت جيوشه بمجموع اتباع الحركة بقيادة سعود، فتفانوا في الدفاع عن دعوتهم السلفية الا ان الجيش المصري دك الدرعية بمدفعيته، وقبض على عبد الله بن سعود وارسله الى استانبول حيث اعدم ١٨١٨، ولكن اراء محمد بن عبد الوهاب بقيت عامرة في قلوب المسلمين حتى الان[٣]

---

(١) الجبرتي، تاريخ الجبرتي، ٤/٣:

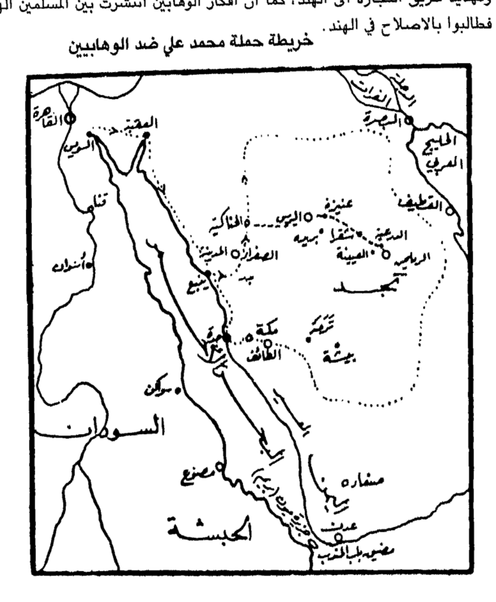
(٢) سورة التوبة ٢٩

(٣) جلال يحيى، تاريخ العرب الحديث، المدخل، ٩١

لم يكن نجاح الدولة العثمانية في القضاء على الحركة الوهابية نجاحاً في القضاء على دعوة التوحيد، لانها دعوة الاسلام، ولان دعوة الشيخ الوهابي ظلت مستقـرة في النفوس، ولم يكد محمد علي يسحب جيوشه من الجزيرة العربية سنة ١٨٤٠ حتى عاد السعوديون لانشاء امارتهم، حيث استطاعوا فيما بعد انشاء المملكة العربية السعودية.

استاءت بريطانيا من الدعوة الوهابية لان اصحابها حاولوا الاستيلاء على قطر[١] وتهديد طريق التجارة الى الهند، كما ان افكار الوهابين انتشرت بين المسلمين الهنود، فطالبوا بالاصلاح في الهند.

خريطة حملة محمد علي ضد الوهابيين



(١) لوتسكي: تاريخ الأقطار العربية الحديثة، ٧٨

آثار الحركة الوهابية :

لاقت الحركة الوهابية صدى قويا لدى معظم المسلمين ولا سيما العلماء، وانتشرت في الجزيرة العربية بسرعة، ونجحت في تخليص عقيدة التوحيد من الشوائب، وجددت امور الدين في النفوس، واشاعت الامن والنظام.

واثبتت الحركة قدرتها على دعم نظام الحكم السعودي، فقد قامت الدولة السعودية، ونهضت لتبنى اميرها بهذه الحركة الاصلاحية،وارتكزت الدولة السعودية على اسس ومباديء تلك الحركة الاصلاحية.

وعمت آثارها كافة الدوائر الاسلامية في مصر والشام، والهند وايران، وشمال افريقيا، اي من سومطرة في الشرق حتى نيجريا في الغرب[1]، ولقيت الحركة بعض المعارضة، ومن هنا عقدت المجالس العلمية لمناقشة افكار الحركة فادى ذلك الى نوع من اليقظة الفكرية، هزت الركود الذي اصاب العالم الاسلامي، ووفرت اسلوبا ونموذجا للحركات الاصلاحية اللاحقة، فظهرت حركات متشابهة في العالم الاسلامي، كالحركة الشوكانية في اليمن، حيث نادى اصحابها بمحاربة البدع والتقليد، والحركة السنوسية في شمال افريقيا، والحركة المهدية في السودان.

الحركة السنوسيه

ظهرت الحركة السنوسية في القرن التاسع عشر في شمال افريقيا، وقد اسسها محمد بن علي السنوسي.

وتشبه هذه الحركة الحركة الاصلاحية بنجد، فهي تشترك مع الحركة الوهابية في البعث الثقافي، كما تعتمد على الارشاد لمعرفة الدين الصحيح، ومحاربة البدع، والدفاع عن كيان الاسلام، وتدعو الحركة الى الانضواء تحت لواء الخلافة العثمانية ما دامت قائمة، في حين كانت الدعوة الوهابية تطالب بالانفصال عن العثمانيين.

وركزت الدعوة ان يكون المسلمون عباداً عاملين يعيشون من كدهم وعرق جبينهم، ينبذون الكسل والتواكل، ويمجدون العمل الصالح، ويقيمون مجتمعهم على اساس الانتاج والتنظيم السياسي، ويتخذون من الرسول الكريم مثلا اعلى يحذون حذوه، ونموذجاً اسمى يحاولون الوصو اليه.

نشأة مؤسس السنوسية:

تنسب هذه الحركة الى محمد بن علي السنوسي، وهو من سلالة الادارسه، ويتصل نسبه الى علي بن ابي طالب كرم الله وجهه، ولد سنة ١٧٨٧ في مستغانم في الجزائر، وكان جده من كبار علماء المسلمين في تلمسان.

اقبل محمد بن علي السنوسي على ارتشاف العلم، فانتقل الى مراكش حيث تلقى العلوم في جامعة القرويين بفاس، فاتسع علمه ونضج تفكيره.

رحل السنوسي الى طرابلس الغرب، وبنغازي، والقاهرة، حيث اقـام في الازهر، يتعلم ويعلم، وينشر افكاره الاصلاحية.

سافر الى الحجاز فالتقى بنخبة من المفكرين الاسلاميين، واستفاد منهم، وانشأ زاوية اي مسجداً صغيرا للعبادة والتعليم قرب مكة.

عاد الى ليبيا حيث انشأ زاوية في البيضاء في الجبل الاخضر، فكانت ام الزوايا السنوسية، ثم اخذت الزوايا تزداد وفقاً لتطور الدعوة.

لقد ازعج السنوسي انتشار الخرافات والبدع بين المسلمين، وآلمه انصراف اولى الامر منهم الى مصالحهم، وشؤونهم الخاصة، واهمال احوال الرعية، وادرك ان العالم الاسلامي بحاجة الى الاصلاح عن طريق الدين.

مباديء السنوسية:

ادرك السنوسي ان الدعوة الاسلامية في حاجة الى الاصلاح، وضرورة تخليصها من الخرافات التي تسربت اليها، فوضع خطة شاملة لاصلاح ذلك، واعتمدت خطته على المباديء التالية[1]:

- ليس هناك حدود تقسم العالم الاسلامي، فالحركة الاصلاحية يلزم ان تكون شاملة لكل اقطاره.
- يجب ان تكون الحركات الاصلاحية فكرية وسياسية في آن واحد، فالاسلام دين ودولة، واي اصلاح لا يكون متكاملا لن يؤتى ثماره بصورة فاعلة.
- يواجه العالم الاسلامي حركة تبشير الى المسيحية، لذلك يجب نشر الاسـلام بين اللادينيين قبل ان يعتنقوا المسيحية لازدياد حركة التبشير.

---

(١) احمد الشلبي، موسوعة التاريخ الاسلامي ٤/ ٤٠٤

- العودة الى يسر الاسلام، وتنقيته من البدع والضلالات والاعتماد على الكتاب والسنه.
- نبذ الزهد والاستجداء الذي تمارسه بعض الفرق الصوفية لانها ليست من الاسلام.
- فتح باب الاجتهاد لمعالجة القضايا التي تواجه المجتمع الاسلامي .
- الجهاد ضد المستعمرين.

نظام الزوايا:

الزاوية هي مركز ديني وثقافي واجتماعي وعسكري[1]، وهي عبارة عن فناء واسع تحيط به مرافق عديدة، تشمل مسجد، ومسكن الشيخ وحجرات لسكنى الطلاب والاخوان، ومكان للضيافة، ومحل لأيواء اللاجئين الى الزاوية، وفي الزاوية بئر للسقيا، ومخزن للامتعة.

وكانت الزوايا تقام في مكان حصين ليسهل الدفاع عنها، وعلى مفارق الطرق ليسهل الاتصال بها.

وكان يعين لكل زاوية مقدم، يشرف عليها، فيتولى امور الناحية ويفصل في الخصومات بين اهلها، ويساعده وكيل ينظر في الشؤون الاقتصادية، وزراعة الاراضي وتنظيم التجارة.

وكان لكل زاوية شيخ يقيم الصلاة، ويعلم الاولاد، ويباشر عقود الزواج، والصلاة على الجنائز، وكان المجلس العام للزوايا يشرف على ادارة الزوايا كلها، ويتكون هذا المجلس من الخواص الذين بلغوا درجة عالية من المعرفة والعلم.

وكان افراد الزوايا يدربون على اتقان الرماية والاعمال العسكرية لحماية الزاوية من العدوان، وكانت الزوايا تعتمد على نفسها في جميع الامور الاقتصادية والعسكرية والتعليمية، اي لديها الاكتفاء الذاتي في شتى الميادين.

انتشار الزوايا:

اسس محمد بن علي السنوسي عدة زوايا، لتكون مراكز لدعوته ففي سنة ١٨٤٣، انشأ الزاوية البيضاء في الجبل الاخضر، وفي سنة ١٨٥٦ نقل مركز الدعوة الى واحة الجغبوب لانها اكثر توسطاً واسهل اتصالا بانحاء مختلفة من طرابلس، وبرقة والسودان.

---

(١) احمد الشلبي، موسوعة التاريخ الاسلامي، ٧/٤٠٥

وقد أنشأ في الجغبوب مدرسة دينية لها مكتبة بها حوالي ثمانية الاف مجلداً، تشمل كتب التفسير والفقة والحديث والفلسفة والفلك، وكان في الجغبوب ٣٠٠ طالب، يعدون الاعداد الكامل، ليكونوا حملة نور الاسلام ودعاة هداية.

انتشرت الزوايا في عدة اقطار فبلغت سنة ١٩٠٢ حوالي ١٣٦ زاوية، موزعة كما يلي: برقه ٤٥، مصر ٢١، طرابلس ١٨، الجزيرة العربية ١٧، فزان ١٥، السودان ١٤، الكفرة ٦.

اثر الزوايا:

نجحت الزوايا في اعمار المناطق التي تمركزت بها، فاقيمت المساكن، واستصلحت الاراضي لزراعتها، فزاد الانتاج الزراعي، ومهدت الطرق، وانتعشت التجارة، فكانت لزاوية الكفرة اكبر الاثر في جعل الكفره مركزا تجارياً تلتقي فيه القوافل من جميع انحاء افريقيا الوسطى والشمالية، وانتشر الامن في المنطقة وعم الرخاء وساد التعاون بين السكان، وانتهى الفساد والغزو الذي كان منتشرا بين القبائل.

وساهمت الزوايا في نشر الاسلام في تشاد وأواسط افريقيا ودار فور، فكان التجار احد عوامل نشر الاسلام في الجهات النائيه.

وقد حرص السنوسي على ارسال الدعاة لنشر الاسلام في مختلف انحاء افريقيا، فكان يشترى العبيد الذين يخطفهم الاوروبيون ويسرقونهم من اهاليهم، فيشتريهم ويمنحهم حريتهم ويعلمهم الاسلام، ويجعل منهم دعاة، ويعيدهم الى قبائلهم التي خطفوا منها، لنشر الاسلام بين قبائلهم واهلهم.

زعماء السنوسيه:

توفي محمد بن علي السنوسي سنة ١٨٥٩ في الجغبوب، وكانت السنوسيه قد توطدت اركانها، وقويت دعائمها، فخلفه ابنه المهدي وتابع مسيرة والده في نشر دعوة السنوسية، ولكنه نقل مركز الدعوة من الجغبوب الى الكفره سنة ١٨٩٥، وتوفي المهدي سنة ١٩٠٢، فخلفه ابن عمه محمد الشريف بن السنوسي، وفي عهده تم العدوان الايطالي على ليبيا، وقد نجح في التصدي للايطاليين حتى عام ١٩١٨، حين استطاع خديوي مصر في شق صفوف السنوسيين والمساعدة على بروز محمد ادريس كمنافس لابن عمه احمد الشريف[١] فسافر الاخير الى تركيا تاركا قيادة السنوسية الى محمد ادريس بن المهدي، والذي اصبح ملك ليبيا لدى استقلالها.

---

(١) عبد الكريم غرايبه، تاريخ العرب الحديث، ٢٠٠

لقد لعبت السنوسية دوراً كبيراً في الحياة السياسية والروحية بـاكثر الاقـطار الاسلامية في افريقيا، كما ساهمت في بعث الثقافة الاسلامية باساليب فعالة كثيرة العمق.

الجامعة الاسلامية

ازدادت اطماع الدول الاوروبية في العالم الاسلامي خلال القرن التاسع عشر، فاحتلت روسيا القوقاز، وسيطرت هولندا على اندونيسيا، وانجلترا على مصر والسودان، وفرنسا على الجزائر وتونس، وايطاليا على الصومال، حتى بدا للعالم الاسلامي ان موجة الاستعمار الاوروبي تسعى للاطباق عليه من كل جانب، مما دفع المسلمين الى التفكير في العمل على جمع كلمة المسلمين في جميع انحاء الأرض لوقف تيار التوسع الاوروبي، ومن ثم نشأت فكرة الجامعة الاسلامية والتمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها بين جماعة المسلمين.

مساعي السلطان عبد الحميد للوحدة الاسلامية:

حاول السلطان تقوية الوحدة الاسلامية التي تقوم على ركنين هامين هما:

- الخلافة الاسلامية لما لها من شأن كبير في المحافظة عل الوحدة الاسلامية.
- الحج الى بيت الله الحرام، أذ انه بمثابة مؤتمر اسلامي سنوي عام يتدارس فيه المسلمون احوالهم.

دعا السلطان للجامعة الاسلامية معلنا انه يرمي لربط المسلمين في شتى البلاد بآصرة قوية هي آصرة الدين، متخليا عن عصبية الجنس واللغة، وانه ينوي ان يهيء للبلاد الاسلامية صنوف الحرية والاخاء[١] وحاول اعادة الخلافة الاسلامية الى ما كانت عليه في القرون الاسلامية الاولى، وتقوية مركزه داخل الدولة باعطاء اهمية له بصفته خليفة المسلمين، وخادم حمى الحرمين[٢].

كان السلطان يهدف الى استخدام الجامعـة الاسلاميـة لمقاومـة اطماع الدول الاوروبية، التي كانت تستغل ضعف الدولة العثمانية، لكنها كانت تهاب قوة الاسلام[٣] فجمـع كلمة المسلمـين بما فيهم الذين يخضعـون لفرنسـا في شمال افـريقيا والذين يخضعون لبريطانيا وروسيا، وهكذا حاول السلطان الاستفادة من الجامعة الاسلامية

---

(١) احمد الشلبي، موسوعة التاريخ الاسلامي ٥/٩٠٦

(٢) جلال يحيى، المدخل، ٢١١

(٣) محمد انيس، الدولة العثمانية والمشرق العربي، ٢٣٨

لتهديد اوروبا الاستعمارية بقوة الجهاد، في الوقت الذي كان يحاول توحيد دولته، وتأليف قلوب شعبه، وتثبيت مركزه بين رعاياه، وقد اكسبته هذه الدعوة ولاء الشعب،واحترام المسلمين خارج دولته، فزاد من قوة الدولة في المجال الدولي.

لقد ساعد السلطان عبد الحميد في دعوته هذه انه كان متدينا، وامر بابعاد كل ما لا يتفق وتعاليم الدين عن قصره السلطاني، واحاط نفسه بالعلماء والمشايخ، واستخدمهم في الدعاية له في المناطق الاسلامية، وضرورة الالتفاف حول الخلافة وكسب شريف مكة، واستغل نشاطه في موسم الحج تمهيداً لرجوع المسلمين الى بلادهم، وهم يحملون افكاراً جيدة عن الخلافة وعن السلطان عبد الحميد، كما انشأ مدرسة للوعظ والارشاد ليقوم خريجوها بالتبشير بعهده، وذكر ورعه وتقواه، وتقوية الروابط بين المسلمين، وانفق الكثير على المدارس الدينية، واستدعى جمال الدين الافغاني والعلماء الى الاستانه، التي اصبحت مركز الزعماء المسلمين المجاهدين ضد اوروبا، والفارين من بطش الاستعمار وظلمه، والذين ركزوا على توحيد قلوب المسلمين ومناهضة الدول الاوروبية، وقد ساعد على قيام الجامعة الاسلامية.

أ ـ جمال الدين الافغاني:

ساعد جمال الدين على انتشار فكرة الجامعة الاسلامية، وقد ولد في افغانستان سنة ١٨٣٩، ودرس الفقه على مذهب ابي حنيفة، زار كثيرا من بلدان الشرق، الهند، ومصر، واستانبول، وكان يدعو الى العمل المتواصل لتخليص العالم الاسلامي من السيطرة الاجنبية، وتحسين حالة الامة الاسلامية.

اتصل الافغاني بمعظم حكام المسلمين يدعوهم لنبذ خلافاتهم، ولما يئس من امكانية اصلاحهم، اتجه الى الامة الاسلامية ينبههم الى الخطر الاستعماري، فالتف حوله العديد من الناس بعد ان اقتنعوا بارائه.

ويعتبر المؤرخون حركة الافغاني امتداداً للحركة الوهابية، وقد ركز على:

- تجديد الاسلام بتخليصه من البدع والخرافات الدخيله، والعودة الى اصول العقيدة[1]، وجعل القرآن والسنة دستور المسلمين.
- ايقاظ الامة الاسلامية والسمو بمستواها الى مستوى الامم، باصلاح احوالها دينيا، وثقافيا واجتماعيا واقتصاديا.

---

(١) العروة الوثقى ص ١٣٩

- اتحاد الاقطار الاسلامية تحت سلطة الخلافة الاسلامية لتتمكن من درء الاخطار الخارجية، والتحرر من سيطرة الغرب (الاوروبيين).
- الاعتماد على التعليم، والاخذ باساليب العلم الحديث، واسباب تقدم الغرب وتفوقه.

ويتجلى مفهوم الافغاني للوحدة الاسلامية في مقالاته في مجلة «العروه الوثقى» التي كان يصدرها مع الشيخ محمد عبده، وفيها يقول «لا التمس بقولي هذا ان يكون مالك الامر في الجميع شخصاً واحداً، فان هذا ربما يكون عسيراً، ولكن ارجو ان يكون سلطان جميعهم القرآن، ووحدتهم الدين، وكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الامر ما استطاع»[1].

وقد لخص الافغاني علاقته بالسلطان عبد الحميد بقوله «اما ما رأيته من يقظة السلطان وشدة حذره،واعداده العدة اللازمة لابطال مكايد اوروبا، وحسن نواياه، واستعداد للنهوض بالدولة الذي فيه نهضة المسلمين عموما، فقد دفعني الى مد يدي له فبايعته بالخلافة والملك، عالما علم اليقين ان الممالك الاسلامية في الشرق لا تسلم من شراك اوروبا، ولا من السعي وراء اضعافها وتجزئتها، وفي الاخير ازدرائها واحدة بعد اخرى، الا بيقظة وانتباه عمومي، وانضواء تحت راية الخليفة الاعظم[1].

وهكذا يتبين لنا أن الاخطار التي كانت تهدد الشعوب الاسلامية هي التي دفعت الافغاني الى الدعوة للوحدة الاسلامية، كما راى في الدولة العثمانية الاطار الاسلامي العملي الذي تتحقق فيه هذه الوحدة.

ب - الشبيبة العثمانية:

قامت حركة الشبيبة العثمانية عام ١٨٦٠ بتأثير الحركة الوهابية، فقد نشط دعاتها ومؤيدوها في جميع انحاء العالم الاسلامي في هذا الوقت، بسبب المفاهيم التي تبنتها، فتبنت الشبيبة العثمانية فكرة الوحدة الاسلامية التي تضم جميع المسلمين في جبهة واحدة، لمواجهة الدول الاستعمارية الاوروبية.

اخذ هذا الشباب بالضغط على السلطان عبد العزيز ليتبنى الدعوة للوحدة الاسلامية، ومساعدة الشعوب الاسلامية التي ترزح تحت الحكم الروسي، وتوثيق الصلات بجميع المسملين، ولكنه رفض هذه الدعوة خوفاً من بطش الدول الكبرى، فطلبوا منه تجنيدهم للجهاد ضد روسيا، فرفض ايضا مما ادى بحياته.

(١) محمد باشا المخزومي، خاطرات جمال الدين الافغاني، ٦٧

وعندما جاء السلطان عبد الحميد تبنى هذه الدعوة وآمن بها، وعمل لها، لانه رأى ان الروح التي تسيطر على الدول الاوروبية في حربها للدولة العثمانية هي الروح الصليبية، وان هذه الدول تسعى بكل جهدها لتحرير الشعوب المسيحية ومساعدتها على الاستقلال، في حين تسعى لاستعمار واستعباد الشعوب المسلمة وتحطيم استقلالها، وهدم كيانها، كما حصل في عدن والجزائر، لذلك رأى السلطان ان لا سبيل الى الذود عن الشعوب الاسلامية الا بجامعة اسلامية تضمهم، وترفع علم الجهاد .

تعاون السلطان عبد الحميد مع الشبيبة العثمانية وشجع حركتهم، واخذ يستصرخ الشعوب الاسلامية للالتفاف حول الدولة العثمانية، باعتبارها دولة الخلافة، ليقفوا صفاً واحداً للدفاع عن الاسلام.

انتشار الدعوة للجامعة الاسلامية:

لقيت الدعوة للجامعة الاسلامية تأييداً كبيراً في نفوس المسلمين، اذ حسبوا انهم يستطيعون رد اعتداءات الاوروبيين، فقد هتف كثير من الناس للدعوة الحميدية، واملوا ان تتحقق الجامعة الاسلامية (الوحدة الاسلامية)، ليتحقق بها اعادة القوة الى المعسكر الاسلامي، واستقبلها المسلمون الذين كانوا يرزحون تحت عبء الاستعمار الاوروبي بالحماسة والابتهاج.

وقد ساعدت العوامل التالية على تأييد الوحدة الاسلامية:

- تكالب الدول الاوروبية على استعمار الاقطار الاسلامية، ومساعدة الشعوب المسيحية للانفصال عن الدول العثمانية، متبنية سياسة «الشعوب النصرانية تتحرر والشعوب الاسلامية تستعمر».
- اثر الدعوة الوهابية في اذكاء روح الجهاد، والرجوع الى الاسلام والدفاع عن دياره.
- انتشار الصحافة في معظم بلاد العالم الاسلامي واستخدامها في معالجة مشاكل المسلمين.

ازداد نشاط المسلمين للدعوة للوحدة الاسلامية، وعقدت المؤتمرات للعلماء والمسلمين لدعمها، وصدرت بعض المجلات التي تدعو لفكرة الجامعة الاسلامية، منها سبيل الرشاد في استانبول، والعالم الاسلامي في القاهرة، وكثر المفكرون المسلمون المؤيدين لها مثل محمد عبده وعبد القادر الجزائري، ومحمد كرد علي، ومحمد بيرم التونسي، وقاسم امين.. الخ، كما انبثقت عنها حركات اصلاحية بعد الحرب الاولى، وهكذا انتشرت فكرة الجامعة الاسلامية، وعمت جميع الاقطار الاسلامية.

نشرت جريدة العروة الوثقى عدة مقالات سنة ١٨٨٣ تدعو الى اتحاد المسلمين، منها مقال عنوانه «الجنسية والديانة الاسلامية» اعتبرت فيه ان كل رابطة عدا رابطة الشريعة الحقة ممقوته، والمتعصب لها ملوم، والمعتمد عليها مذموم.

وهكذا سيطرت العاطفة الدينية، واصبح الدين والوطنية توأمان، وتعلق الناس بالفكرة الاسلامية، وامدوا الدولة العثمانية بالمال والرجال، على اعتبار انها دولة اسلامية، وان جيشها جيش مسلم، وانتصاره يهم جميع المسلمين.

شعر الاوروبيون بخطر سياسة عبد الحميد الاسلامية فانبرى لها العديد من الاوروبيين المتعصبين والمعادين كاللورد كرومر، والمسيو هانوتو، وهاجموا الجامعة الاسلامية، واعتبروها بؤرة التعصب الديني، وان القصد منها تحدي قوات الدول الاوروبية، ودعوا الامم الاوروبية الى مراقبة هذه الدعوة والحذر منها، والاجهاز عليها.

وقف اقطاب العرب والترك يدافعون عن الجامعة الاسلامية وينفون عنها صفة التعصب الديني، بل ان محمد عبده دافع عن السلطان عبد الحميد، ووصف دولته بانها اكبر دول الاسلام، فشعر السلطان بشيء من الارتياح لتأييد المسلمين له، ولان المستنيرين فطنوا بل وادركوا مخططات الدول الاوروبية لاقتسام املاك الدولة العثمانية، وعملوا على تقوية الاسلام للوقوف في وجه اطماع الغرب.

سياسة السلطان عبد الحميد العربية

حاول السلطان عبد الحميد كسب العرب، واستمالتهم الى جانبه بتوكيد صلتهم بالاسلام، فقد اسبغ على زعماء العرب وكبرائهم مظاهر التكريم والجاه[1] واكرم شيوخ العرب، وعين البعض في مناصب القصر، ووكل اليهم القيام بشؤونه الخاصة، وعهد اليهم بالاشراف على كبار موظفيه المناوئين لميول العرب، ونال بعض العرب من الحظوة عند السلطان مما دعا رجال الحاشية الى التزلف الى العرب، حتى قيل لقد سقط القصر جميعه في ايدي العرب، وخاصة بعد ان جعل فرقة من الجنود العرب ضمن كتيبة حرسه الخاص.

وقد اغدق السلطان الهبات السخية على معاهد التعليم العربية، وانفق اموالاً طائلة على اصلاح مساجد مكة والمدينة وبيت المقدس، كما اسبغ على الحسين بن علي مظاهر التكريم فدعاه الى استانبول سنة ١٨٩٣ واستضافة خمسة عشر سنه عومل خلالها بمنتهى الاحترام، وكان الحسين في العقد الرابع من عمره، ومعه زوجته وانباؤه علي وعبد الله وفيصل.

ومع انه حاول ان يكسب العرب الا انها لم تصل الى درجة منحهم اي جزء من مطالبهم المتواضعة انذاك (الحكم الذاتي)[2].

كما ابعد كل عربي يعمل في سبيل القومية العربية، وحاول القضاء على الشيوخ والرؤساء والاقطاعيين من العرب الذين كانوا يحاولون العمل لصالحهم، بل وبذر الخلافات بينهم لاجبارهم على السكنى في العاصمة، وقد قلق السلطان عبد الحميد من الاضطرابات المعادية للترك في بيروت، وظهور منشورات ثورية، فشك ان العرب يعملون على اقامة خلافة عربية، فلجأ الى وسائل الارهاب مع المتهمين بعد ان فشلت معهم وسائله في الترغيب.

وكان السلطان يعتمد على الجواسيس لجمع الاخبار، ووضع غير الموالين له تحت المراقبة، وكان احيانا يوعز باثارة الخلافات العائلية والقبْلية للسيطرة على الموقف.

سكة حديد الحجاز :

اتجه السلطان الى زيادة ترابط وتحسين مواصلات دولته، فقد منح امتيازاً لمد خط

---

(١) جورج انطونيوس، يقظة العرب، ١٣٩

(٢) محمود منسي، مرجع سابق، ٦٦

حديد من الاناضول الى الموصل، ثم يسير جنوبا الى بغداد والبصره، ويصل فرع منه الى الاسكندرونه، وقد اثار هذا المشروع بريطانيـا، ذلك انه يهـدد مصالحهـا في الشرق العربي، كما يهدد الطريق التجاري الى الهند، بالاضافة الى تهديد مصالح بريطانيا في الخليج العربي، وعندما نجح في عقد الاتفاق على بنائه مع المانيا لاحت له فكرة انشاء سكة حديد الحجاز بحيث تمتد من دمشق الى المدينة فمكة، لتسهيل سفر الحجاج الى الديار المقدسة بطول ١٤٠٠كم.

وجه السلطان نداء الى العالم الاسلامي اهاب فيه بالمسلمين ان يتبرعوا بالمال، لجمع نفقات مشروع الخط الحديدي الحجازي، وقد أثار المشروع حماسا كبـيرا في مختلف جهات العالم الاسلامي، فانهالت التبرعات من كل ناحية، وبلغت حوالي مليون جنيه، اي ثلث تكاليف المشروع، كما اصدرت الدولة العثمانية طابع بريد للمساهمة في المشروع، وبدىء العمـل به سنـة ١٩٠١، وتم الانتهاء منـه سنة ١٩٠٨ عـلى ايدي المهندسين الالمان.

كان للمشروع اثر كبير في اثارة حماسة المسلمين، وتثبيت مكانة الخليفة، واظهار الخليفة بالزعيم الروحي للاسلام، ذلك ان الحج اصبح سهلا، فقد جعل السفـر الى الحجاز ميسوراً، ويستغرق خمسة ايام بدلا من اربعين يومـاً عن طريق القوافـل، او اسبوعين اذا استخدم الطريق البحري عبر قناة السويس.

وقد فكر السلطان بمد السكة الى اليمن ليقوي قبضته على اليمن الثائر، بعد ان اصبحت شبه جزيرة العرب في متناول حكومة الاستانـه، ويسهل القضـاء، وعلى اي محاولة عربية للتحرر من الاتراك.

الا ان المشروع كان مصدر قلق لعرب الجزيرة العربية، وبخاصة الحجاز، لأنه يضر مصالحهم ويحرمهم موردا هاما من موارد الرزق، اذ كانوا يعتمدون في معيشتهم على نقل الحجاج على ظهور الابل، لذلك هاجم بعض الاعراب اماكن بناء سكة الحديد، وسطوا على معداته، حتى اضطرت الحكومة العثمانية الى وضع حراسة شديدة عـلى الخط الى ان انتهى العمل به في المدينة عام ١٩٠٨.

ومع ذلك فقد ادرك العرب اهمية الخط، ودانوا بالطاعة للسلطان وادركوا ضرورة الوقوف في وجه الغرب، الى جانب العثمانيين، بعد ان اطلعوا على مدى خطورة المخططات الاوروبية لاقتسام الاراضي العثمانية بما في ذلك الولايات العربية، واصبح العرب يتمنون على السلطان ادخال اصلاحات سيـاسية واقتصـادية تمكنهم من التقـدم والنهوض

والوقوف في وجه اطماع الغرب، اكثر من دعوتهم للتخلص من الحكم العثماني.

شعر السلطان عبد الحميد بالارتياح لان اغلبية العرب اصبحت تؤيد الخلافة، لان في ذلك تأييد للاسلام، غير ان الأمور تبدلت وعزل السلطان اثر ثورة الاتحاديين.

الثورة المهديه

اوضاع السودان قبل الثورة :

فتح محمد علي السودان، وتوسعت مصر في الفتوحات في عهد الخديوي اسماعيل. فوصلت املاكها خط الاستواء، وشرق افريقيا، وحاولت الادارة المصرية ايام محمد علي اصلاح اوضاع السودان، فاسست مدينة الخرطوم لتكون عاصمة البلاد. وانشات حكومة قوية تتبع الحاكم في مصر مباشرة، واصلح نظام القضاء، وادخل القانون العثماني ليحل محل التقاليد القبلية، ومنعت تجارة الرقيق.

فتح محمد علي المدارس، وزيد عددها ايام اسماعيل باشا، وحسن الزراعة، وتم بناء السكك الحديدية والتلغرافية الا ان الاوضاع المصرية المالية السيئة في عهد الخديوي اسماعيل انعكست على الاوضاع في السودان، فانتشرت الرشوة بين الموظفين وساءت الاحوال الاقتصادية وفرضت الضرائب العالية، واستعانت الحكومة بموظفين اجانب غير مسلمين، فشعر السودانيون بالضيق لخضوعهم لموظفين غير مسلمين، واحسوا بالظلم الواقع عليهم، واصبحوا مهيئين لاستقبال اي دعوة تنقذهم من الواقع الذي يعيشونه، فاستجابوا لدعوة المهدي وانضموا لحركته.

الشيخ محمد احمد المهدي:

ولد سنة ١٨٤٣ قرب مدينة دنقله، واظهر منذ صغره ميلا الى التعليم، فحفظ القرآن، وتلقى علوم النحو والفقه والتوحيد، والتحق في شبابه باحد الطرق الصوفية، واظهر ورعاً وتقوى، وانصرافاً عن اللهو، فدعا الناس الى الشريعة الاسلامية فالتف حوله الناس، وكثر مريدوه، وسمى جماعته بالانصار اسوة بانصار الرسول ﷺ .

اراء المهدي:

لاحظ المهدي ابتعاد الناس عن منابع الشريعة الاسلامية، واتجاههم الى المشعوذين، فاختلطت بعض البدع بالاسلام، ولذلك دعا الناس الى تخليص الاسلام من هذه البدع التي بدأت تظهر بين الناس، واهم الاراء التي نادى بها.

- نبذ البدع والخرافات التي دخلت الاسلام، كممارسة الشعوذة في معالجة الناس، وتقديس الاولياء وذلك بالتمسك بالقرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ .
- الاستجابة لاوامر الدين ونواهيه والقيام بفروضه وواجباته.
- لا يجوز الفصل بين الدين والسياسة، على اعتبار ان الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين كانوا يمارسون السلطتين الدينية والسياسية في آن واحد.
- العودة الى وحدة الاسلام، وهاجم تعدد المذاهب واختلاف الملل وكثرة الشروح في المسائل الدينية الفرعية.

أسباب الثورة:

استاء المهدي من الاوضاع السيئة في السودان، فدعا الى تصويب الامور، ولكن حاكم السودان حاول اجبار المهدي على العدول عن ارائه، فازداد المؤيدون لحركته للاسباب التالية:

أ ـ فساد الحكومة في السودان، واعتمادها على الاتراك والجراكسه الذين كانوا على جانب كبير من الظلم والقسوة[1].

ب ـ انتشار وسيلة الرشوة بين الموظفين، والاثراء غير المشروع.

ج ـ احتكار الحكومة كثيرا من السلع التجارية الهامة التي كانت العماد الاساسي لتجارة السودانيين، كالعاج وريش النعام.

د ـ ارهاق المواطنين السودانيين بكثرة الضرائب.

هـ ـ سيطرة الاقطاعيين من الاتراك على مقدرات البلاد الاقتصادية وسوء اوضاع الاهالي السودانيين الاقتصادية.

مجريات الاحداث :

طالب المهدي بالمساواة بين السكان، وانتزاع الاقطاعات من المصريين والاتراك والشركس الذين وفدوا الى السودان، ووضع حد للنهب الاوروبي، فوجدت دعوته قبولا بين السكان، وتجمع لديه اعداد غفيرة واصبحت حركته خطراً على الحكومة، فارسل حاكم السودان قوة لحمله على العدول عن ارائه، ولكن المهديين قضوا على هذه القوة واعلن المهدي الجهاد، وانتشرت افكاره وبخاصة بقيام ثورة عرابي في مصر، واضطراب الاحوال في عهد الخديوي توفيق.

---

(١) جلال يحيى، العالم العربي الحديث/المدخل، ٣٦١

استولى أنصار المهدي على جزء كبير من كردفان، بعد احتلال بريطانيا لمصر عام ١٨٨٢، وذلك للاسباب التالية : ـ

١ ـ سلطات الاحتلال الانكليزية سرحت الجيش المصري، ورفضت مساعدة الحكومة المصرية على اعادة النظام في السودان، وحالت بين مصر وبين الاستعانة بالسلطات العثمانية على اخماد الثورة.

٢ ـ رفضت بريطانيا طلب رئيس وزراء مصر انذاك انتداب بعض الضباط الانكليز للعمل في الجيش المصري بالسودان، ولكنها سمحت بالتعاقد مع بعض الضباط الانكليز غير العاملين مثل هكس باشا Hicks

نجاح الحركة المهدية.

قاد هكس باشا حملة مصرية قوامها جنود مسرحون من جيش عرابي سنة ١٨٨٣، فقضى عليها المهديون في شيكان بالقرب من النيل الابيض، فطلبت بريطانيا من رئيس وزراء مصر شريف باشا سحب قواتها من السودان، وعندما رفض اجبرته على الاستقالة، وتولى الوزارة المصرية نوبار باشا فسحب القوات المصرية.

أرسلت بريطانيا حملة جديدة بقيادة جوردون باشا لسحب الجيش، فاستهان بامر المهدي، وارسل اليه طالباً منه التوقف عن القتال، ووعد بتعيينه سلطانا على غرب السودان، فبعث اليه المهدي رسالة يدعوه للاسلام، ثار جوردون، وفقد اعصابه، وتراجع عن فكرة الانسحاب، وصمم على مواجهة المهدي، الا أنه قتل عندما استولى المهديون على الخرطوم سنة ١٩٨٥.

تابع المهديون انتصاراتهم، فهزموا الجنرال البريطاني في مديرية البحر الاحمر، كما استسلم الجنرال لبتون حاكم بحر الغزال، وهكذا استطاعت الثورة السيطرة على معظم اراضي السودان واتخذت ام درمان مركز للحركة.

نظمت المهدية الشؤون العامة في البلاد، واتسمت الدولة الجديدة بالطابع الديمقراطي، وكونت الجيش من الفلاحين والبدو والارقاء، وسعت الى تطبيق المساواه، وحرمت تجارة العبيد، وفرض على الجميع تقديم الزكاة والتبرعات الى بيت المال، وحددت رواتب الموظفين، فكانت قليلة متقشفة، كما خفض المهر الى عشر ليرات، في الوقت الذي كان معدل راتب الموظف العادي ٢٥ ليرة، وحدد ذبح خروف واحد في مآدب الاعراس.

---

(١) لوتسكى، تاريخ الاقطار العربية الحديثة ٢٠١

كانت الدولة الفتية محاطة بالاعداء من جميع الجهات، لهذا اقامت ترسانات الاسلحة، ودوراً لبناء السفن، وداراً للطباعة، ومصنعاً للاسلحة، واستعانت بخبراء اوروبيين، الا ان الخبراء لم يخلصوا في عملهم، واعاقوا ترميم السفن، ودمروا الآلات في المعامل الحربية، فتقلصت الذخيرة وسادت فوضى في المصانع العسكرية، وضعفت قوة الجيش لقلة الاسلحة بعد تدمير مصانعها.

القضاء على الحركة المهدية:

توفي المهدي سنة ١٨٨٥، فخلفه عبدالله التعايشي الذي لم يكن يتمتع بنفوذ سلفه، فضعفت الروح المعنوية لدى الانصار، ولم يستطع التعايشي تنظيم الامور، وضعفت حركة التجارة، وكثرت المظالم في البلاد، ومع ذلك فقد حاول التعايشي غزو مصر سنة ١٨٨٩، ولكن قواته ارتدت مهزومة في معركة كوشكى في بلاد النوبه.

تطلعت الدول الاوروبية الى اقتطاع الاراضي السودانية، فحاولت بلجيكا ان تمد نفوذها الى جنوب السودان حتى توسع حدود مستعمرتها في الكونغو البلجيكي، ولكن التعايشي أرسل حملة عسكرية اجبرتهم على الانسحاب الى قواعدهم في الكونغو سنة ١٨٩٣، كما تقاسمت بلجيكا وبريطانيا اقليم خط الاستواء، فاحتل الانكليز اوغندا، وقام البلجيك باحتلال بعض الاراضي.

وفي عام ١٨٨٩ هاجمت الحبشة الاراضي السودانية، واحتلت هرر واجزاء اخرى، ورتب القنصل البريطاني في مصر مع نوبار باشا رئيس وزراء مصر تسهيل عملية احتلال الايطاليين اقليم ارتريا على ساحل البحر الاحمر[١]، وضمت بريطانيا زيلغ وبربره على ساحل المحيط الهندي، وقد احتج الباب العالي العثماني على هذا العدوان، ونادى بضرورة جلاء الدول الاوروبية من هذه المناطق، الا ان بريطانيا شجعت ايطاليا على احتلال منطقتي كسلا ومصوع، كما احتل الفرنسيون جيبوتي وجزءاً من اقليم الأبيض (منطقة الفاشر) سنة ١٨٩٨ في الجنوب السوداني.

ارسل الفرنسيون حملتين تسير احداهما في غرب افريقيا حتى فاشوده، عبر جنوب السودان، وتسير الاخرى في الصومال الفرنسي حتى تحتل الاراضي الواقعة شرق الفاشوده، ونجحت الحملة الاولى، بقيادة الكابتن مارشان في الوصول الى فاشودة واحتلالها عام ١٨٩٨.

---

(١) جلال يحيى، المدخل، ٣٦٧

استغلت بريطانيا تزايد الاطماع الاوروبية في السودان، وقررت الحكومة البريطانية القضاء على الوهابيين واسترداد السودان بقوات مصرية يقودها ضباط انجليز، واستطاعت الحملة المشتركة بقيادة الجنرال الانجليزي كتشنر ان تحتل عاصمة المهديين «ام درمان» ورغم ما ابداه المهديون من استبسال في القتال، فانهم لم يستطيعوا الصمود امام الاسلحة الحديثة والتي كان يحظر استعمالها في ذلك الوقت، وبسبب نقص الاسلحة لدى المهديين بعد تدمير المصانع، وهكذا انتهت الثورة المهدية بدخول كتشنر الخرطوم سنة ١٨٩٨.

الحكم الثنائي في السودان:

فرضت الحكومة البريطانية على مصر عقد اتفاقية ثنائية سنة ١٨٩٩ نظم فيها حكم السودان على ان يكون حكما مشتركا بين مصر وبريطانيا، وقد شملت الاتفاقية النصوص التالية:

- الغاء السيادة العثمانية على السودان، وجعل الحكم مشتركا بين مصر وبريطانيا.
- وضع حاكم انجليزي للسودان يعينه الخديوي بموافقة انجلترا ويكون قائدا للجيش، ويساعده ضابط مصري.
- الغاء الامتيازات الاجنبية والمحاكم القنصلية المختلطة في السودان.
- تقدم مصر مساعدة مالية للسودان، لتنفق على المشاريع العامة والاصلاحات.

وهكذا كان دور مصر ثانويا، مع انها تحملت العبء الاكبر في اعادة فتح السودان، بجنودها واموالها، بينما استأثرت بريطانيا بموارد السودان الوفيرة.

حركات الاصلاح الوطنية العربية

بدأ الوعي العربي ينتشر بين السكان العرب، وادرك المثقفون ضرورة دفع عجلة اليقظة العربية في شتى ارجاء الوطن العربي، وبين مختلف فئات المواطنين العرب. وقد اخذ العرب يؤسسون الجمعيات العربية لتعميق الوعي العربي، ولاحياء التراث العربي القديم، وقد بدأت هذه الجمعيات اول الامر جمعيات ادبية تعمل على بث اللغة العربية والادب والتاريخ العربي، ثم انقلب معظمها جمعيات سياسية تدعو الى اصلاح الاوضاع في البلاد العربية، ثم اخذت تدعو الى اللامركزية والاستقلال الذاتي.

أ - الجمعيات الادبية والاجتماعية:

بدأت الجمعيات العربية أدبية الصبغة، وكان لبنان اغنى الاقطار العربية بها، ومن هذه الجمعيات:

- الجمعية السورية: وقد الفها عدد من الادباء جميعهم من المسيحيين، منهم ناصيف اليازجي وبطرس البستاني بالاضافة الى اعضاء البعثة التبشيرية الامريكية في بيروت، وكان لها جهود واضحة في احياء التراث العربي، ونشر العلوم بين العرب، وتعتبر اولى الجمعيات ليس في بلاد الشام، بل في العالم العربي، اذ تأسست سنة ١٨٤٧، ولم يلبث الجزويت اليسوعيون ان حذوا حذو الامريكيين فاسسوا الجمعية الشرقية من المسيحيين العرب والاجانب دون المسلمين سنة ١٨٥٠[١]، كما تأسست جمعيات اخرى على غرارها، وكان لها دور مهم في نمو الحركة العربية، واستمرت خمس سنوات القيت خلالها محاضرات قيمة تدور حول العلم.

- الجمعية العلمية السورية: تألفت هذه الجمعية عام ١٨٥٧، وهي على غرار الجمعيات السابقة، الا انها نالت اعتراف الحكومة العثمانية بها، وكان جميع اعضائها من العرب المسلمين والمسيحيين فلم يشارك بها الاجانب، ومن اعضائها البارزين ابراهيم اليازجي، ومحمد ارسلان وحسين بيهم وغيرهم.

وظهرت فيها الميول السياسية الواعية، والارتفاع فوق الخلافات الحزبية، وتوقف نشاط الجمعية اثناء احداث ١٨٦٠ بين الدروز والموارنه، ولكنها استأنفت نشاطاتها وازداد المشتركون فيها، فضمت شخصيات عربية تعيش خارج بلاد الشام في القاهرة واستانبول.

بدأت الجمعية تعمل على احياء اللغة العربية، وبعث التراث الفكري العربي، والافادة منه، ثم اصبحت مهداً للحركة السياسية فالقى ابراهيم اليازجي قصيدة وطنية كانت بمثابة دعوة للثورة على الحكم التركي [٢] ومما جاء فيها:

تنبهوا واستفيقوا ايها العرب	فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب
اقداركم في عيون الترك نازلة	وحقكم بين ايدي الترك مغتصب
صبراً هيا امة الترك التي ظلمت	دهرا فعما قليل ترفع الحجب
لنطلبن مجد السيف مأربنا	فلن يخيب لنا في جنبه ادب

(١) محمود منسى، مرجع سابق، ص ٤٩
(٢) توفيق برو، مرجع سابق، ص ٢٠

- جمعية زهرة الاداب: اسست سنة ١٨٧٢، وكان معظم ادباء وعلماء ووجهاء سورية قد تعاطفوا عليها، وكان غرض هذه الجمعية نشر العلوم وترقية الفنون بين الناطقين بالضاد، والتمرن على الخطابة وقوة الحجة والدرس والبحث.

ومن اعضائها سليمان البستاني، واسكندر العازار، وقنصل فرنسا (نعمان الخوري) وكان الاعضاء مكلفين بالقاء المحاضرات والدروس على الاعضاء الاخرين، وكانت تمثل الروايات في الجمعية، وتنفق معظم دخلها في الاعمال الخيرية.

- جمعية باكورة سورية: حدثت نهضة نسائية في بيروت، فانشأن جمعيات خطابية، منها هذه الجمعية، وقد وضعت دستوراً لها سنة ١٨٨١، والقيت المحاضرات العديدة في الجمعية، تعالج المواضيع الادبية والاجتماعية.

- الجمعية العلمية في المدرسة الامريكية: انشأها تلاميذ المدرسة، وكان هدفها تمرين الاعضاء على الاجتماع والقاء الخطب، وكان اعضاؤها الطلاب في الصفوف العليا، وكانوا يعملون على الاجتماعات على غرار ما كانت جمعيتهم اثناء وجودهم في المدرسة.

- جمعية المقاصد الخيرية: تأسست هذه الجمعية سنة ١٨٧٨ في دمشق، وكان لها فرع في بيروت، وكان غرضها انشاء المدارس، وترقية المعارف، والاهتمام بجمع مخطوطات الكتب العربية القديمة المبعثرة في الجوامع والمدارس الملحقة بها في مكتبة عامة، هي المكتبة الظاهرية ومن اعضائها الشيخ فضل القصار.

وهناك جمعية زهرة الاحسان غرضها تعليم بنات طائفة الروم الارثوذكسي في بيروت، وجمعية تهذيب الشبيبة السورية، وكان هدفها متابعة تعليم الشباب، وقد اعانت ٧٧ شاباً و ١٤ فتاة.

- الجمعية التاريخية: انشئت سنة ١٨٧٥، للبحث في التاريخ، وغيره من العلوم، للوقوف على تاريخ العرب وادابهم، وتراثهم العلمي المجيد، وكانت الجمعية تعقد الندوات والحلقات الادبية والثقافية، ومن اعضاء هذه الجمعية المشهورين الشيخ طاهر الجزائري، الذي كان له باع طويل في خدمة اليقظة العربية، ذلك انه كان نابغة في علمه وتفكيره، ضليعاً بالعلوم العربية والدينية مطلعاً على مجمل العلوم العصرية، وكان يدعو الى الارتشاف من ينابيع العلوم العصرية لمواكبة التطور في الحضارة الانسانية.

وقد انشئت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر جمعيات نسائية لأغراض

علمية وادبية وخيرية، ومن اشهر هذه الجمعيات جمعية شمس البر، وزهرة الاحسان في لبنان، اما في سوريا فظهرت جمعية نور العفاف، وفي مصر وجدت جمعيات كثيرة منها ما هو علمي ادبي كالجمعية الجغرافية، وبعض هذه الجمعيات لها اهداف سياسية متسترة بالعمل والادب والفن، كجمعية الاداب سنة ١٨٧١، والجمعية العلمية الشرقية ١٨٧٧، الى جانب جمعيات كثيرة لنشر الكتب، واخرى لتعريبها وللتأليف، واندية ادبية وجمعيات خيرية تعليمية، كجمعية العروة الوثقى الاسلامية، وكانت تابعة لمركز الجمعية الاساسي في بيروت.

وهناك جمعية المعارف الدروز هدفها اصلاح الطائفة الدرزية، وجمعية يقظة الفتاة العربية في بيروت، والجمعية الخيرية الاسلامية في الاسكندرية، والجمعية الطبية المصرية، وجمعية العروة الوثقى في الاسكندرية، وجمعية انصار التمثيل في القاهرة.

وقد بلغت الجمعيات في القرن التاسع عشر ١٦٠ جمعية، منها ١٤ جمعية اسعافات، ٦٢ جمعية خيرية، ١٧ جمعية للمستشفيات، ١٥ ملجأ للنساء والرجال، ١٦ جمعية للتعليم، و ١٠ للتعاون والباقي لاهداف اخرى.

ب - الجمعيات السياسية :

لم تبق المبادىء الفكرية التي نادى بها الادباء والمفكرون العرب في نطاق النظريات، ولكن سرعان ما انتقلت هذه الافكار الى مجال السياسة، واخذت الاراء السياسية تتسرب الى الجمعيات الادبية، فازدانت الافكار السياسية واختلطت مع الاراء الادبية في الندوات والمحاضرات التي كانت تلقى بين الحين والآخر.

وظهرت اول بادرة تمهيدية من قبل الجمعية السورية سنة ١٨٥٧ التي تضافرت جهود اعضائها على العمل بنشاط لتحقيق الاهداف المشتركة على اساس الوحدة الوطنية، وجعل الرباط الذي يؤلف بينهم الاعتزاز بالتراث العربي، وارتفعت الاصوات التي تنادي العرب الى التمرد والاعتزاز بامجاد الماضي، وبدأ المفكرون يشكلون الجمعيات السرية السياسية، ووضع برامج سياسية لمستقبل العرب، وقد انطلقت هذه الخطط من التراث العربي، وركزت على النهضة العربية والافكار القومية.

وقد احدثت دعوات المفكرين دويا مسموعاً في الاوساط الرسمية والشعبية فتأسست الجمعيات العديد منها:

جمعية بيروت السرية سنة ١٨٧٥

قامت في بيروت وهي اول جمعية عربية سياسية، وكانت سرية وفتحت لها فروعاً في

طرابلس وصيدا ودمشق وبعض المدن الاخرى، وقصرت نشاطها في بداية الامر على المناقشات السياسية وعقد الندوات، وطبع المنشورات وتعليقها في الشوارع تحت جنح الظلام، وقد بدأ يزداد نشاط الجمعية بشكل منشورات مغفلة التوقيع، موجهة الى ابناء الامة العربية يلصقها بعض اعضائها الجريئيين، وقد صبغت باسلوب وطني ثائر يندد بمساويء الاتراك، ويفضح اساليبهم الاستبدادية والظلم، وبسعيهم الى محو العروبة وتتريك العرب، ويدعو العرب الى الوحدة الوطنية ونبذ الخلافات، والوقوف في وجه الطغاة مستلهمين امجاد الامة العربية.

وقد تضمن اول بيان مدون عن برنامج العرب السياسي القومي في تلك الفترة[1] الخلاصة التالية:

- منح سورية الاستقلال الذاتي متحده مع جبل لبنان.
- الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية للبلاد.
- رفع الرقابة والقيود الاخرى التي تحد من حرية التعبير ونشر الكلام.
- جعل الخدمة العسكرية للشبان في حدود الاقاليم العربية.

ضمت الجمعية اثنين وعشرين عضوا من مختلف الطوائف والاديان وكان هدفها الثورة ضد الدول العثمانية، وبقيت هذه الجمعية تمارس نشاطها لمدة اربع سنوات، فلما اشتدت وطأة الاستبداد في عهد السلطان العثماني عبد الحميد، رأى الاعضاء انهم لا يستطيعون الاستمرار، فقرروا ايقاف اعمال الجمعية.

والواقع ان دعوة الجمعية كانت بمثابة النداء الاول الذي بعثته حركة التحرر العربي، كما ان الجمعية نفسها كانت اول هيئة عربية تتشكل والسياسة هدفها الاول.

رابطة الوطن العربي في باريس:

اسس هذه الجمعية نجيب غزوري سنة ١٩٠٤، وقد وصف هدفها بانه تحرير بلاد الشام والعراق من سيطرة الاتراك، وجعل الحجاز مقراً للخلافة العربية الاسلامية.

وقد وجهت الجمعية عدداً من النداءات التي تدعو العرب للثورة على الحكم التركي وفي عام ١٩٠٥، اصدر عزوري كتابا باللغة الفرنسية بعنوان يقظة الامة العربية امام مصالح ومنافسات الدول الاجنبية Reveil de la Nation en Presence de interets et de Rivalites de Puissances Etrangeres[2]

---

(١) محمود صالح منسي، مرجع سابق، ص ٨

وفيه اعرب عن رأيه وجود امـة عربيـة تضم المسلمين والمسيحيـين، ودعا الى استقلال هذه الدولة، التي كانت حدودها في راية البلاد العربية في آسيا فقط.. وهاجم الطائفية واعتبرها شراً يهدم الحركات القومية[1].

ودعا عزوري الى انشاء دولتين، دولة دينية على غرار الفاتيكان تقوم في الحجاز، وتكون عاصمتها مكة، وتحكمها اسرة عربية، ويلقب حاكمها بالخليفة، ويبـاشر سلطة سياسية في بلاد الحجاز، وروحية في جميع العالم الاسلامي.

والدولة الثانية عربية علمانية تضم بلاد الشام ويترأسها احـد افراد الاسـرة الخديوية في مصر، حتى يمكن تجنب ما قد يحدث من نزاع بين الطوائف على اختيار السلطان[2]، وقدم عزوري مذكرة الى الدول الكبرى سنة ١٩٠٥ اعلن فيها استعداد العرب احترام المصالح الاجنبية (عند قيام الدولة العربية) واحترام استقلال لبنـان، والاماكن المقدسة المسيحية في فلسطين والامارات العـربية في جنـوب شبة الجـزيرة والخليج الفارسي.. وان يطالب الدول الكبرى بتشجيع العرب بالمشاركة الوجدانية على ان يقوم العرب بتحقيق اهدافهم.

وكان عزوري يعتقد ان اوروبا تستطيع حماية العرب من الخطر الصهيوني اكثر مما تستطيعه الدولة العثمانية، مع انه لاحظ ان بعض قناصل الدول الاوروبية يسهلون عمليات الهجرة اليهودية وقد خدعتهم الفكرة الانسانية التي يتستر وراءها اليهود

والجدير بالذكر ان عازوري كان نائب متصرف القدس من (١٨٩٩ ـ ١٩٠٤) وانه شارك يوجين يونج في اصدار مجلة شهرية بالفرنسية اسمها الاستقلال العربي ١٩٠٧ هدفها تعريف الغرب بالقضية العربية.

وهكذا كان للجمعيات اثر في تـوعية العـرب، ونشر التعليم، والمساعـدة والقيام بالاعمال الخيرية، وانتقال حركة الوعي الثقافي والقومي مما زاد من المطالبة بالحريـة والاستقلال، الا ان تأثير الجمعيات السياسية لم يكن فعالا، ذلك ان العرب كـانوا لا يزالون متأثرين بدعوة الجامعة الاسلامية، وانهم ما زالوا مرتبطين بالخلافة الاسلامية، وان الافكار السياسية ما زالت لديهم يشوبها الغموض ومتذبذبة وينقصها الوضوح، والموقف المتبلور الجلي.

---

(١) نور الدين حاطوم، مرجع سابق، ص ١٧

(٢) محمود صالح منسى، مرجع سابق، ص ٧٩

المراجع

- عمر عبد العزيز عمر

  تاريخ المشرق العربي، بيروت دار النهضة العربية ١٩٨٥.

- محمود صالح منسي

  حركة اليقظة العربية، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٢

- محمد عبد السلام كفافي

  المجتمع العربي، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٦٧.

- عبد العزيز نوار

  تاريخ العرب المعاصر (مصر والعراق)، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧٣.

- جلال يحيى

  العالم الاسلامي الحديث والمعاصر، الاسكندرية المكتب الجامعي الحديث ١٩٨٢

  العالم العربي الحديث، المدخل، الاسكندرية، دار المعارف، ١٩٨٥

- احمد الشلبي

  موسوعة التاريخ الاسلامي ج٧

- محمود الحلبي

  تحقيق محمد احمد دهان، ت ٨٨١

  العراق بين المماليك والعثمانيين الاتراك، دمشق دار الفكر، ١٩٨٦

- ابن اياس، محمد بن احمد

  تحقيق محمد مصطفى

  بدائع الزهور في وقائع الدهور ج٤، ٥، طبعة استانبول سنة ١٩٣٢.

- محمد عبد المنعم السيد الراقد، احمد احمد الحته

  الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي، مؤسسة شباب الجامعة سنة ١٩٦٨

- علي حسون

تاريخ الدولة العثمانية، دمشق المكتب الاسلامي ١٩٨٣.
- حتر، فيليب
تاريخ العرب طـ ٣، القاهرة، مطبعة دار العالم العربي ١٩٥٣.
- لوتسكى، ترجمة عفيفة البستاني
تاريخ الاقطار العربية الحديث، بيروت، دار الفارابي، ١٩٨٠.
- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم
تاريخ العرب الحديث والمعاصر، القاهرة، دار الكتاب الجامعي.
- محمد احمد انيس
الشرق العربي الحديث.
- احمد عزت عبد الكريم
دراسات في تاريخ العرب الحديث، بيروت، دار النهضة العربية ١٩٧٠.
- نجلاء عز الدين
العالم العربي، القاهرة دار احياء الكتب العربية د. ت.
- الياس فرج
مقدمة في المجتمع العربي والحضارة العربية، بيروت دار الطليعة ١٩٨٠.

الفهـــرس

٢ ـ عوامل اليقظة العربية.

٣ ـ حركات الاصلاح الاسلامية (الوهابية ـ السنوسية ـ الجامعة الاسلامية ـ المهدية).

ـ حركات الاصلاح الوطنية العربية:

أ ـ الجمعيات الادبية والعلمية (الجمعية السورية ١٨٤٧، الجمعية الشرقية الكاثوليكية ١٨٥٠، الجمعية العلمية السورية ١٨٥٧، الجمعية التاريخية السورية في دمشق ١٨٧٥، جمعية المقاصد الخيرية في بيروت ١٨٧٨).

ب ـ الجمعيات السياسية (جمعية بيروت السرية ١٨٧٥، رابطة الوطن العربي في باريس ١٩٠٨).

تاريخ العرب الحديث

يسرنا أن نضع بين يدي قارئنا الكريم كتاب تاريخ العرب الحديث، وقد حاولنا فيه أن نعرض تاريخ الوطن العربي بأسلوب يناسب طلاب كليات المجتمع والجامعات، وكذلك المهتمين بقراءة التاريخ.

لقد شعرنا خلو المكتبة العربية من كتاب شامل لتاريخ هذه الحقبة من الزمن، وحاجة الدارسين لمثل هذا الكتاب، لذلك حاولنا وضع تجاربنا في تدريس هذه المادة بين يدي القارىء عله يفيد منها.

يبحث الكتاب في تاريخ البلاد العربية تحت الحكم العثماني، من نهاية الدولة المملوكية حتى القرن العشرين، وقد عالجنا هذا الموضوع في عدد من الفصول تسهيلا للدارس.

قسمنا الكتاب إلى أربعة فصول رئيسة، خصصنا الفصل الأول لأحوال الوطن العربي السياسية والاقتصادية والاجتماعية قبيل الحكم العثماني، وقدمنا لمحة موجزة عن نشأة الدولة العثمانية لتعزيز الدراسة وإثرائها.

وتحدثنا في الفصل الثاني عن أحوال الوطن العربي تحت الحكم العثماني منذ القرن السادس عشر حتى بداية القرن العشرين.

وأبرزنا في الفصل الثالث الأطماع الأوروبية في الوطن العربي، ومحاولاتها في السيطرة على البلاد العربية ومقاومة العرب لهذه الأطماع ومحاولات السيطرة.

وحاولنا في الفصل الرابع أن نحلل حركة الإصلاح واليقظة في الوطن القرن خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

وقد توخينا لدى معالجتنا هذه الموضوع تحقيق الأهداف التالية:

- ○ تنمية الشخصية السوية للقارىء بتزويده بالحقائق والمعلومات والاتجاهات والمهارات التي تسهم في بناء شخصية الفرد وتحمل المسؤولية نحو الأمة والوطن والانسانية.



الشركة الجديدة للطباعة والتجليد